جمال الغيطانى

دنا فتدلى



دفاتر التدوين

الدفتر الثانى

مركز الحضارة العربية

جمال الغيطانى

دنا فتدلى

دفاتر التدوين 2

مركز الحضارة العربية

تأهُّب

ما إن فرغتُ من تدوين سعيي إلى استحضار الإناث اللواتي لم ألحق بهن ، ولم يتحقق حظي منهن إلا عبر الخلفات العابرة الجالية لـلشجنة ، الحاضنة على استنفار كوامن نائية والتنبيه إلى لُمحيظات يستحيل الوصول إليها أو بلوغ مثواها .

توانرت عليّ الرؤى ، وتجاذبتني آفاق شتى ، لكن أينما وليت تراءت لي القاطرات ، مقبلة ، مدبرة ، منتظرة ، شارعة في الرحيل ، فوق الجسور ، بلوغها المحطات النائية ، مفارقتها الأرصفة : عند التهدئة إيذاناً بقرب الدنو ، عند الإسراع شيئاً فشيئاً طلباً للطي وتجاوزاً للفوت ، الدمدمة الصادرة عن الطاقة المحرضة ، التوثب إلى كل مُناق ، عند عبور الفواصل القضبانية ، فلكي تتصل المسافات ويصح التمدد لابد من مسافات صغيرة فارغة تستوعب انكماش البرد وقلقلة الحر ، فما نراه جامداً : ثابتاً ، إنما تدركه عين الحركة ولو أمره من حديد ، متواليات محسوبة ، مسبوقة بقياسات دقيقة ، عند المد في الصحاري الخالية أو خلال المدن المزدحمة ، نهاراً وليلاً ، شمس متألقة أو غاربة ، أضواء دانية أو كاشفة ، متاحة لكن يصعب إدراكها .

القطارات مقبلة ، مدبرة .

القرب بُعد ، القرب وهْد ، الدنو يخفي ، النأي يكشف : لا يرى المسافر إلا ما بَعُدَ عنه ، أعمدة البرق المتشابهة ، المفردة ، الوحيدة رغم اتصالها ، تضطرب في نظر المسافر لحظة محاذاتها ، تفلت إلى الخلف إذ يتجاوزها القطار فتتضح ، ألا تبدو البيوت المستقرة قرب الأفق أكثر وضوحاً من تلك المطلة على الخطوط أثناء الاندفاع وعلى المسار ؟

ألا يشبه ذلك وضع الإنسان ، لا يرى نفسه إلا عند تمام انفصاله ، عن وقته ، عن موضع ارتبط به ، عن قوم أحبهم وأحبوه ، كل اكتمال من تضاد أو مفارقة ، لننظر إلى صلته بصوته ، لا يصغي إليه وقت النطق ، يستوعبه بعد الصوت وإذ يجيء من الخارج ، عندما يستمع عبر الآلة يبدو غريباً ، مبثوثاً : كأنه صادر عن آخر .

أصغيت مراراً عبر مراحل العمر إلى نَبْري ، رصدت تغيراته ، ولمحت بدايات الوَهَن ، وكمائن المهاوي ، ورفرفات الأسنة المعكّرة للصفو ، الجالبة للمشقة ، للغيبة عند اكتمال البسط ، هذا حديث يطول ، لم يحن أوانه بعد ، لكنني أتساءل لعلّي مُصغٍ إلى من يدلني .

هل ثمة صلة بين أكوان الإناث والقطارات ، لماذا أوقن عند إقبالي على التدوين كأني لم أنفصل قط عن دفتري الأول ، حيث الإناث اللواتي لم أدركهن إلا بالمخيلة ، ولم أتوحد بهن إلا بعد اجتياز الممرات الضوئية داخل الذات .

القطارات الأنثوية ، أنوثة القطارات ، الترابط ، التواصل ، التوالج ، القيام ، الوصول ، العبور للمركبات ، للبشر ، أي صلة كامنة ، زاخرة ،

أيهما يتحقق بالآخر ؟

لا شيء عندي معادل للزعقات المنبعثة ليلاً ونهاراً ، المنبعثة كل وقت ، القريبة ، القصية ، المقربة بين ما لا يمكن جمعه ، الطاوية للمراحل ، تلك الزعقات استثارت أقاصي حنيني ، أصبحت حنيناً في مجملي وكافة تفاصيلي .

سفري بالقطارات ، الرحيل عندي ما يتم بالقطار ، لا العربات ، ولا الطائرات ، ولا السفن ، الكبير منها والصغير ، مرأى العربات المحاذية للأرصفة ، من محطة إلى أخرى ، قادم ، صاعد ، مفارق ، هابط معاً ، لا أبلغ المعنى الذي لم أوفق في التعبير عنه حتى الآن إلا بتمام قصدي ، القطار .

ما من بلد نزلته بعد بلوغه جواً أو بحراً إلا وسعيت إلى قطاراته ، التدقيق في الفوارق ، لا أكف عن المقارنة ، جعلني الله من أهلها ، القادرين ، المتمكنين منها ، فما دمت قادراً ، مطواعة لي ، فإن سعيي مطمئن ، وألقى أتم ، المقارنة بين قطار وآخر ، بين سفر وسفر عندي مرجعي .

أحتوي محطة البداية ، أتمكن من القبض على لحظات التوثب ، الأصل عندي لكافة ما عرفت من طُرُز مختلفة ، ذلك المتجه إلى قبلي .

قطار الصعيد عموماً ، الثامنة صباحاً تحديداً .

آواني نطفة بين صلب أبي وترائبه ، ثم جنيناً في رحم أمي عندما قصدت جهينة لتلدني ، فصبياً لائذاً بأبيه وأمه ، ثم رجلاً مكتملاً يسعى ويحاول بلوغ الأقاصي والإلمام بالخفي المستعصي .

الأسباب شتى ، والفصول متوالية ، لهذا صار مرجعي ، وإليه الملاذ دائماً والقياس ، منه اللحيظات والصور الباهتة ، وتلك الجلية .

إليه التوق ، والرغبة في الإدراك ، وطرح التساؤلات وتعدد الإجابات ، والحيرة ، لذلك كانت الدمدمة ، والإضافات ، الموقدة ، المؤججة ، المفضية إلى توثبات شتى ، مستدلاً بالإشارات الملواحة على ما كان وما يمكن أن يكون .

***

أقدم التساؤلات

"امبارح راح فين ؟"

"لماذا نفس الجهة في كل مرة ؟

لماذا لا يتجه القطار إلى الناحية الأخرى ؟

ماذا يوجد هناك في بحري ؟"

أما السؤال الأول فمُنبعث مني ، صادر عن ذاتي ، قديم عندي ، أما الاستفسارات الأخرى فمصدرها القطار ، حضّ عليها وأشعلها ، من هنا لا أعتبره للسفر ، إنما مصدراً للدهشة والعجب .

تمسك أمي بيدي من ناحية ، وبيد والدي من جهة أخرى ، متحنية ، متطلعة إلى الفجوة ما بين الرصيف وعتبة الاجتياز ، رغم محاذاتها وضيقها فثمة حذر دائم متعدد الاتجاهات ، أن تزل قدم فتحشر ، أن يتحرك الساكن ، الرابض فجأة ، انحناءة أمي انتقلت إليّ ، صار كل عبور عندي يقتضي خشية .

ذات ليلة شتوية قال أبي إن مسافراً سقط بين الرصيف والقضبان ، لم يلحقه أحد والقطار إذا بدأ لا يتوقف ، ما بين الرصيف والعربات ، فارق محدود لكنه في توقعي الأول كان بمثابة هوّ غامض ، يهدد الأعمار ، مصدر لآلام مجهولة ومخاوف لا تفسير لها عندي ، رغم خشيتي أختلس النظر حيث تثار الزيت والماء والزلط متساوى الأحجام ، موثق لما بين القضبان ، يحجب الفلنكات الماسكة بعضها عن بعض ، المُتلقّي الأقرب لأصداء العجلات وشررها المتطاير ، وطيها الوقت .

إمكانية الاختيار وقتئذ بين المقاعد مُتاحة ، الزحام نادر خاصة في محطات البداية ، يتجه الوالد إلى مقعدين متواجهين من خشب لونهما بني فاتح ، الدرجة ثالثة ، جدران رمادية ، سقف أبيض تتخلله مصابيح دائرية تبدو من خلال أغطية زجاجية شفافة .

نوافذ مزدوجة ، زجاجية داخلية ، "شيش" خارجي ، لا أذكرها مغلقة رغم الإمكانية المتاحة إلا مرات نادرة ، رغبة التطلع إلى الأفق الدائري عند المسافرين أقوى . ربما لأن وعيهم بوجودهم المؤقت المحفوف بالمخاطر ، متحرك ، مرهون بقطع مسافة ، إذا حادت العربة مقدار شعيرة تقع الكارثة، لذلك يقيم كل منهم الصلة بالنظر مع الكينونة الأفسح مدى ، لعل وعسى !

يحرص أبي ألا يجاورنا أحد . أمي إلى جوار النافذة ، شقيقي محمد يتوسط ما بينها وبين أبي ، في المواجهة إسماعيل وأنا . يضع الوالد .. ثقة .. يشغل الفراغ الذي لم يملؤه حجمي الصغير ، وإذا جاء مسافر وتطلع ورغب ، يقول والدي مبدياً النفاد ..

"الكراسي الفاضية كثيرة .. كل منهما مقطوع له نصف تذكرة .."

ألزم السكون عادة ، حركتي مقلقة ، أمي تحذرني ، الانتقال يثير انزعاجها ، أحرص ألا أغضبها ، أطلب رضاها عني ، لذلك أظل أتمنى الوقوف إلى جوار النافذة طوال الرحلة ، والمشي بين المقاعد ، والنظر فقط ، مجرد النظر إلى الباب المؤدي إلى العربة التالية . أسكت وأتمنى تحرك القطار عكس الاتجاه الذي يمضي إليه في كل سفرة

جرس

صفير

صفير نحيل ، قصير في البداية ، يليه آخر متصل .

طشطشة يعقبها كركبة منتظمة ، تعلو ، تغيب ، ترجع .

تتراجع العربة إلى الوراء ، مسافة محدودة تشير إلى فك الكوابح الرابطة ، إلى التوثب ،

تحتك المصدات الفاصلة .

يبدأ تراجع الواقفين ، الأعمدة ، المظلات الساترة ، الباعة ، الحمالين ، المفتشين ، المخبرين ، الحراس ، الجدران ، تبدأ مفارقة العجلات للقضبان وديمومة التصاقها بها أيضاً ، وتلك صلة من الأمور الدقيقة التي تشغلني وتراودني في خلواتي حتى الآن ، ذلك أنها تحتوي على إجابات جمة لتساؤلات شتّى ، لكنني لا أقدر على الإمساك بها وتصنيفها وتحديدها ، ذلك أن العجلات ملاصقة للقضبان ، مصممة بحيث لا تفلت ، تلزمها ،

تبعها أينما اتجهت ، غير أن الغرض لا يتم ولا يكتمل إلا بالمفارقة ، وبقدر سرعة مفارقة العجلات للقضبان يكون الإتقان وسرعة الانتقال ، لكن .. لننتبه ، فتلك الصلة مشروطة ، إذ لو جرى انفصال تام يقع المحظور، ليتم القطار رحلته لابد أن تمتزج حركة العجلات والعلاقة بالقضبان ، عجلات مرسلة ، مدفوعة بالطاقة ، ناقلة للحرارة ، قضبان متمددة ، متلقية: ثمة فاعل ومفعول لاجتياز المكان وقطع الوقت ، لابد من اكتمال الضدين واتحادهما لتكون حركة .

تتراجع الجدران والأعمدة الحاملة والساعة الدائرية ، والحقيقة أن كل شيء ثابت ، متواصل ، ونحن الذين نتقدم إلى الأمام ، نمضي ، بكبكبات البخار المتتالي ، المندفع ، المتوتر ، المتطلق بحساب وتقدير ، ينتظم الإيقاع فوق فواصل القضبان في البداية قبل اندماجه مع تزايد السرعة ، أتطلع إلى المشاهد المتوالية ، تدركني حيرة ، يتجه القطار إلى عين الجهة ، متى يتحرك إلى الجانب الآخر ، إلى بحري بدلاً من قبلي ؟ يمسني أمر غامض ، يؤطر صمتي الذي جُبِلت عليه ، لا أعرف مصدره أو منابعه ، ذلك أنني لم أكن قادراً على تفسير ما يحيرني ، لكنني بشكل ما ، كنت أعي ما يصاحب كل تحرك وما تعنيه النقلة من موضع إلى موضع وما يتضمنه الأمر من فراق أكيد مهما وثقت من برامج تنتظرني . وفي زمن مبكر صار ذلك عندي من الإشارات المؤلمة بعد محاولتي استيعاب ما جرى لشقيقي محمد .

***

يبدأ رحيلنا بعد عبور البوابة المؤدية إلى ميدان بيت القاضي ، عندما نصل إلى موقف الحافلة رقم عشرين ، أمام دكان عم بيومي الحلاق الذي

يسكن الطابق الثالث من بيتنا في حارة درب الطبلاوي ، تبدأ الحافلة من هنا وتنتهي عند سراي القبة ، لكنها تمر بميدان باب الحديد ، ركوبها أول إدراكي للسفر : إنها الخطوة الأولى إلى القطار .

ذلك الصباح الباكر ، الهادئ ، توقف شقيقي محمد ، بالضبط تحت البوابة ، التفتت أمي إليه ، ثبت قدميه في الأرض ، تطلع صوب قبة قلاوون مذعوراً ، مرجوفاً ، قاوم محاولتها جذبه ، نهرته ، بكى ، وعندما لاحظت رعشته ، مالت إليه .

"مالك يابني .. بسم الله الرحمن الرحيم .."

شعره بُني فاتح ، نحيل ، جلبابه مخطط بلون طحيني فاتح ، تراجع أبي ، دائماً يعد الخطى ، ودائماً تطالبه أمي بالتمهل ، قال :

"شيليه .."

فرفّط بقدميه ، بكاء غامض ودمع مريب ، ملست كتفه براحتها ، دفس دماغه في باطنها محاولاً ألا يرى ما عجزنا عن مشاهدته ، كان بكاؤه حاداً ، متوالياً ، وعندما تجاوزت العربة قبة قلاوون صمت ، في القطار انزوى كامناً ، لائذاً بجانب أمي ، لم تكف عن الطبطبة عليه ، والتمتمة بكلمات غامضة ، قرأت الفاتحة والصمدية ، لعلها تطرد المس ، أو تهدئ المكروب الخفي .

رحت أرنبه صامتاً وعندي خشية لا تفسير لها ، كنت أعي وجود أمر ثقيل لا أعرف كنهه ، ثمة تربص قديم ، ولم أعرف ما ينبغي أن أفعله . غير أنني في لحظة تالية لتحرك القطار من محطة المياه ، وتواري النخيل المتزايد

في كثافته كلما اتجهنا جنوباً ، فارقت مكاني وعبرت المسافة الفاصلة، ملت عليه ، قبلته ، احتضنته وقد كنت مشاكساً له ، مستفزاً له ، وحتى الآن أرى طلّه صوبي ، لم يبق منه عندي إلا محاولة التراجع تحت البوابة ، وتلك الطلة ، هذا الاستسلام الهادئ ، المطواع ، البصمة المدركة لما يصحب رؤيته بالنظر ، طلّة أثق من انطباعها داخلي ، ومثولها عندي لحظة خروجي من الفندق إلى مبنى المستشفى الأمريكي بكليفلاند الثانية ، يوم تقرر إجراء الجراحة لي لقلبي ، وهذا ما فصلته في تدويني "الخطوط الفاصلة" .

هذا ما يَمْثُل منه عندي الآن ، وقفة وطلّة : في إطار اندفاع قطار الجنوب، لزمن طويل ستذكر أمي اندفاعتها تلك ، تحكيها لجدتي ، خالي ، لجارتنا أم كامليا ، تستنتج الدلالات وترصد معالم العبر والنبوءة ؛ ولسنوات طوال سأستعيد ملمس شعره الجعد ، واستكانته التي انتقلت إليّ، وأتألم إذ أذكر همود ملامحه ، وعلامات نضج مفاجئ ظهرت . بدأ تداخله في بعض ولم ينفك ، لا في رحيلنا ، ولا عند بلوغنا جهينة ، ولا في أيام إقامتنا ، واحتفاء الأقارب بنا ، ولا عند ركوب قطار العودة من طهطا، ولم تكف أمي عن النظر إليه ، ونطقتها السؤال :

"مالك يا ولدي .. إيه اللي شفته ومش قادر تقول لي عليه ؟؟"

عند عبور فناء المحطة والوقت ليل ، سرت الرعشة منه إلى أمي ، اضطرت إلى التوقف والصيحة .

"الحقني يا احمد .."

لكن .. ممن سيلحق ، وممن سيتصدى من ؟

أي قدرة له على دفع هذا الارتجاف المتوالي . بعد بلوغنا البيت لم يخلع الوالد ملابسه : قصد الشيخ عطية في حارة الميضة ، حمل معه جزة من شعر أخي وقطعة من جلبابه ، نظر إليهما الرجل ، قرب الأثر من أنفه ، قرأ التعازيم الكاشفة والعبارات المؤدية ثم توجه بالسؤال .

"سفر ؟"

يومئ أبي ، يقول الشيخ :

"إنها المحطة الأخيرة"

ثم يقول :

"إذا طلعت عليه شمس الجمعة فلا خوف عليه.. سيبلغ المائة بإذن الله .."

الوقت مساء الثلاثاء ، هرول أبي ، راح يجري من عيادة الطبيب إبراهيم شحاته إلى أجزاخانة رقبية أول الغورية ، إلى خضر العطار في الحمزاوي ؛ طرق كل باب ، ونذر لإطعام فقراء الحبيب الحسين ، لكن التدبير جرى .

لزمت أمي الصمت ثلاثة أيام بعد أن خاطبته عمداً ، هامساً وهمست له مطمئنة ، موصية بما يفعله وما يتلوه حتى يبدد وحشة الطريق ، "ما تخافشي يا حبيبي .. جدك معاك وروحي جنبك .."

ثم تقول :

"إنت مش وحدك .."

بعد أن حمله والدي على يديه لزمت الصمت ، وبعد ثلاثة أيام تساءلت

" لو أننا لم نسافر .. هل ..؟"

نهرها أبي محذراً

"يا ولية .. هذا أول الكفر .."

قالت إنه جذبها مرتين بقوة لا تتناسب مع عمره ، من ابن عامين . مرة تحت بوابة بيت القاضي ، والثانية عند ركوب القطار ، ليتها لم تركب القطار ، ليتها لم تسافر ، ليتها انتبهت إلى ارتجافه كعصفور بلله المطر ، تصمت ، ولمدة ظلت تكرر التساؤل :

"آه لو أعرف ماذا رأى عندما شدني إلى الوراء ؟ .."

***

في البدء لم أعرف من أين يجيء ؟

فيما بعد سمعت عن مخازن القاطرات في غمرة والسبتية ، ومع تزايد الزحام صار بعض الأشداء يقصدون المبيع ويحتلون المقاعد ليتنازلوا عنها للمسافرين مقابل أجر معلوم .

في البدء : كنا نجد العربات منتظرة ، الدرجة الثالثة في المؤخرة وعند عودتنا من طهطا نكون في المقدمة ، القضبان الخالية تمتد .. إلى أين ؟ ، تثير رهبةً عندي ، سيظهر فجأة قطار لا يمكنني دفعه أو الحيلة عن مساره . عند حد معين تختفي القضبان ، تتلاشى ، تصير إلى نقطة .

دائماً لمحطة مصر البداية ، وأيضاً المنتهى ، منها تتدفق القضبان ، الفلنكات ، المسامير الغلاظ ، الزلط المبثوث ، وحديد مصقول يميل إلى غمقة ، تلك المحطة تنطلق إلى قبلي وبحري ، عندما علمت بتسيير قطار

من اسكندرية إلى أسوان مباشرة لم أستوعب : كيف تصير محطة مصر إلى وقفة عارضة مثل الوقفات الأخرى ، كيف تسبقها محطة ؟ إنها بداية المسلسل ومنتهاه ، حتى عند اضطراري إلى الركوب من محطة الجيزة المهيبة، المشيدة على الطراز الفرعوني ، فبمجرد جلوسي على المقعد تكتمل داخلي المسافة ، كأني جئت القطار من محطة مصر ، لابد لكل امرئٍ من مبتدأ ومنتهى ، حتى إن تلاشى في الواقع الخارجي ، فإنه يظل ماثلاً عنده ، قائماً به ..

***

المواقيت

الثامنة . له الصبوحة ، وهداة المدرج ، ونعومة الوصلة : الثامنة ، لا أحيد عنه أبداً ، قطارات شتى لكنه يظل المرجع والمصدر ، أول موعد عرفت ولم أغيره إلا بعد بدء أسفاري المنفردة بمعزل عن الوالدين والأشقاء. ربما أكون سافرت نطفة بين ثنايا أبي ومسعاه ، أو بويضة تنتظر على وسائد رحم أمي ، بالتأكيد رحلت جنيناً فيه وبه . ذلك أنها غادرت البيت في درب الطبلاوي لتلدني قبل موعدها بشهر ، هكذا أطلعتني في زمن متقدم ، وهكذا روت لي في أوقات صفوها ، وإضفاء حنوها عليّ ، والرغبة في تلبية استفساراتي . أفضت إليّ بتفاصيل شتى ولم تخبرني عن موعد القطار لكنني أثق أنه الثامنة ، ذلك أنه الأنسب والأفضل لتقاصد مسقط رأسي ، وموضع وفادتي إلى العالم المعاين ، يقف بالمراكز وهذا يعني أن وقوفه بعواصم المديريات مفروغ منه ، الأصل هو الوقوف عند المحطات الكبرى : الجيزة ، بني سويف ، المنيا ، أسيوط ، سوهاج . يلي ذلك المدن الرئيسية (المراكز) وهذا يعني الوقوف عند طهطا أقرب المدن إلى جهينة التي تقع إلى الغرب ، عند الخط الفاصل بين الوادي والصحراء .

يمكن للواقف عند آخر بيوت ربع حسام الدين أن يضع قدماً في الأرض الخضراء المزروعة ، والأخرى في الصحراء ، إضافة إلى ثمن التذكرة الأرخص إلى طهطا بدلاً من سوهاج وأيضاً قربها النسبي ، فالقطار يطل في الثالثة والثلث ، يتوقف تماماً بحذاء رصيف محطة طهطا عند تمام العشرين دقيقة بعد الثالثة ، يمكن الوصول إلى جهينة قبل الغروب . تقف عربة أجرة في انتظارنا ، تهتز طوال الطريق ، يبدو لي القطار أكثر رسوخاً. أغفو ، تَمْثُل وجوه من الرحلة ، ركاب ، باعة ، نساء يحدثن ، جندي يغفو. تهتز العربة ، أستيقظ متدفقاً بهدير ولظى ، القاطرة السوداء ، الذراع الحديدية المتحركة ، دخلة المحطة المهيبة ، صفير غامق ، إلى أين بعد طهطا ؟ الثامنة أنسب ، مليء بالضوء لأنه يقطع النهار من أوله إلى آخره ، من صبحه إلى عصره ، معتدل المزاج ، متمهل ، ناعم الهوينا ، لا يتقدم جباراً ، مكتسحاً كافة المحطات عدا المديريات ، هذا قطار الثانية عشر ظهراً ، كلاهما قديم ، الثامنة والثانية عشر ، لكن الثاني أشهر ولذلك أسباب منها طيّه الأرض ، أسرع ، أقوى ، لا يتوقف إلا عند عواصم الحواضر وبالتالي يقطع المسافات أسرع لتزايد طاقته وشدته ، كل الطرق تُخلّى له ، المزلقانات تغلق قبل اجتيازه بمدة كافية ، لا يعير المحطات الفرعية أو تلك الصغيرة المهملة اهتماماً ، لا يهدئ من سرعته ولا يخفف من جبروته ، بالعكس ، إن الواقف فوق أحد الأرصفة . أو المطل من نافذة عند مروقه ليُروع باندفاعة جبارة ، نافثة بخارها ودخانها ، مُبدية حممها ، ساحبة خلفها المصائر كافة ، لا يتوقف الثانية عشر إلا بالحواضر الكبرى . إنه السريع ، إنه المفتخر ، لا يعير البلدة الصغيرة اهتماماً حتى لو صدم أحد أبنائها ، الحق على من دفع

بنفسه إلى طريقه ولا إثم عليه : توقفاته معدودة ، ومواقيته محسوبة ، ومراحله بيّنة ، لذلك علق حنين أهل الجنوب به ، وتطلعوا إليه ، وصبوا إليه ، وتغنوا به :

"يا وابور الساعة اتناشر

يا مقبل ع الصعيد .."

في تغريبة عمال التراحيل الفقراء وحنينهم إلى جنوبهم ، إلى أصل منطلقهم ومصدر إقامتهم وبدء منشأهم ، تدور أحلام السفر حول هذا القطار وليس غيره ، وقد عرف الأبناء منهم والأحفاد تغريبات أشق خارج الوطن كله . بدءاً من عقد السبعينات وما جرى فيه من أحوال فصلناها في رسالتنا الموسومة "البصائر في المصائر" ، سافروا إلى هنا وإلى هناك : أقطار عربية وأخرى أجنبية ، وأدهشني أن الحنين عندهم مرتبط ، متصل بالثانية عشر ، حتى أنني لقيت أحدهم في قرية صغيرة جنوب بغداد ، شكا لي القيظ وجفوة القوم وبعده عن الولد والصحب ، وأصر على رفقتي . دعاني وحمّلني الأمانة إلى أهله ، شاي هندي ، وقماش صيني ، وحلوى بالفستق، العجيب أنها عين الهدايا التي كان أبي يجتهد لتضمها قفة الزيارة التي نصحبها معاً إلى خالتي ، إلى جدتي ، تحتوى على سكر ، وشاي ، وصابون، وبعض أمتار من قماش إذا تيسر الأمر ، علبة حلاوة طحينية ، هذا ما تمتلئ به القفة في رحلتنا من القاهرة ، عند العودة إليها تزدحم حتى الحافة بأرغفة الخبز ، و"الفايش" وهذا معجون باللبن ومس من العصفر والسمن البلدي وملمس عذراء ، فلا يمكن أن تقرب عجينته إلا بنت بنوت لم تمس بعد ، وإلا لن تتخمر عجينته ، ويؤكل الفايش بعد غمسه في اللبن الساخن المحلى بالسكر ، فلا يماثله مذاق . وفوقه الملوخية الجافة ، والبلح المقدد ولهذا وقفة ، وطلة ، فأوانه مديد ، والحاجة إليه متصلة : والمذاق متنوع ، إنه ثمر النخيل ، وللنخيل عندي منزلة عجب ، تنتهي الهدايا بالحمام المذبوح والاوز أو البط وتغطى بقماش جلباب قديم : وتَمْلق رائحة الطعام بالحاسة الشمية دهراً ، وتحدد الفواصل . وتعين الأوقات : تماماً كأعمدة التلغراف آدمية الوقفة ، جمادية الصبر ، أبدية الصلّية .

لا يناسبنا السريع ، أولاً لتوقفه في سوهاج ، هذا يعني مسافة أبعد وسعراً أعلى للتذكرة ، كما أنه يصل بعد الغروب ، في مفتتح الليل . لا يؤدي الموعد بسهولة إلى جهينة ، الطريق وعرة ، متربة ، الأخطار لا تقتصر على الضباع الهائمة ، والذئاب السارحة ، والقطط البرية المتحفزة للقفز صوب الحشا مباشرة ، إنما هناك المطاريد ، يقطعون الطريق ويسلبون المارة حتى ثيابهم . وربما يختطفون الثري منهم سعياً إلى الفدية . أما قضاء ليلة في سوهاج فأمر مكلف ، كان ذلك متاحاً للوالد وما زال عند تنقله فرداً ، لكن مع امرأته وعياله فصعب ، مستبعد .

في العودة ، الموعد تمام الثانية عشر من ظهرها ، نقف على الرصيف المقابل ، لكنه ليس المعنى في أغاني الغربة ، لا يمت إلى قطار الحنين القادم من بحري ، السريع ، البادئ دائماً من محطة مصر ، كل القطارات القادمة إلى قبلي عزيزة ، مبتغاة ، لكن .. تلك الماضية إلى مصر ، إلى الاسكندرية إلى حيث تمتد الخطوط صوب جهات أجهل وجهتها ، فلا تعني إلا الرحيل غصباً ، الخلع قسراً من الجذور ، من البيوت والرحبات وقعدات الليل وأحضان الزوجات ، وحلاوة القرب من الأطفال ، القطارات الذاهبة

نعرف الأسى فقط :

زعق الوابور ع السفر

أنا قلت رايحين فين

حتغيبوا سنة ولا اتنين ؟

فلاقتصر على تلك العاديات ، المسرعات ، المتجهات جنوباً ، السفر الحقيقي يقصد منبعاً أو مصدراً ، وما المدن الكبرى القصية إلا استثناءات حتى لو انقضى العمر كله في نواحيها . لابد من تعيين وتحديد : المرء تربطه دائماً صلة بالبقعة التي فتح فيها عينيه على الدنيا ، مسقط الرأس ليس موضعاً ، إنه مدخل المرء إلى الكون ومخرجه أيضاً ، إنه بدء التناقص المؤدي إلى اكتمال . لا يكون رحيل إلا بعد تمام .

ثمة قطارات أخرى لكن لم تقم بيننا وبين أحدها صلة باستثناء أبي ، الرابعة إلا عشر دقائق سريع حتى أسيوط ، بعدها يقف على المراكز مثل الثامنة صباحاً ، لكن وصوله بعد منتصف الليل ، وأحياناً يتأخر ، ربما لا يدخل طهطا إلا بعد الفجر ، الطريق بعد أسيوط كان مفرداً ، ذا اتجاه واحد، وعلى القطار أن ينتظر في المحطات حتى تتم المقابلة ، ويتم تبادل أطواق الخيزران بين السائقين ; بما يعني خلو الخط حتى المحطة القادمة ، ثمة قطار ليلي يتحرك في الحادية عشر ، تطلع عليه الشمس عند وصوله إلى طما ، لكنه غير ملائم لسفرنا كعائلة ، بل إن ذكره كان يثير عندي نوعاً من الخوف الغامض لا أدرى سببه أو مصدره ، خوف غريب يدفعني إلى الكف . لزوم الصمت . الإصغاء وخشية من التبدد .

سفر الليل لا يلجأ إليه إلا مضطر ، أو قادم من بعيد إلى بعيد .

من نال ذلك على مسمعي ؟

لا أدري . لا يمكنني التحديد

آخر القطارات وأيضاً أولها إذا أخذنا في الاعتبار تحركه مع طلة الفجر ، قطار الصحافة ، إنه يحمل الصحف إلى المحافظات الجنوبية ، ظهورها في الميادين وصياح الباعة عليها مرتبط بوصوله .

في حنينه المتصل إلى جهينة رحل الوالد بكافة هذه المواعيد . سافر في الثامنة والثانية عشر والرابعة إلا عشرة والحادية عشرة والصحافة ، وما استجد بعد ذلك ، لكننا لم نعرف إلا الثامنة وجريه المتعقل ، المتزن ، بلوغه طهطا عصراً ، ولم أعرف خلافه إلا بعد بدء سفري منفرداً . لذلك يتجه حنيني إلى هذا الصباحي العامر بالضوء ، القاصد مدن الجنوب بتؤدة معقولة ، تمده كله في النور . وكنت أظنه يبدأ ولا يتوقف أبداً ، غير ملم بنقطة انتهاء . دائماً العربات سارحة عبر الفراغ المزروع بالنخيل وأشجار الدوم والجمّيز والجسور المؤدية ، صفاراته الغامضة الشجية عند الاقتراب من المحطات ، سواء وقف على النقاط المحددة .. أو استمر بدون أرصفة ، أو تمهل يعقبه توقف هادئ ، متزن ، ثم إقلاع هادئ شجي ، وأحياناً لا يدركه القوم إلا بتراجع المرئيات ببطء يتزايد شيئاً فشيئاً . فيخيل إليهم أن الجبال تفوتهم والتلال والبيوت وأنهم وقوف يتفرجون والحقيقة أنهم هم المغادرون ، المبتعدون .

***

الأرصفة

للمواقيت مواضعها ، وللأماكن مواعيدها ، اللحظة تعني مكان ، وانفصام العُرَى بينهما يؤدي إلى عدم تجهله . للقطار زمن يتحرك فيه ، ورصيف ينتقل منه ، فالأرصفة أماكن معلومة .

بداية ، نهاية ، طرق ممتدة ، محددة بعلامات ، بنايات ، إشارات بعضها احمر وأخضر واصفر ، وحواجز حديدية ، وفواصل يسيرة ؛ لضمان تمدد مأمون ، وتقلص بلا عاقبة .

أطواق مفاتيح متصلة بالقضبان ، تغير المسارات ؛ تؤطر السلامة ربما تؤدي إلى الكارثة ، تكوين ، متصل ، منفصل ، مسارات متشابكة ، متفرعة، من أهم معالمه . الأرصفة .

إنه الشروع ، والمختتم أيضاً ، حاوٍ للأول والآخر ، الوصول إليه أول خطوة في المرحلة المؤدية ، والنزول إليه وملامسة الأقدام له يعني الفراغ من قطع المسافة .

أرصفة محطة مصر طويلة ، متجاورة ، لابد أنهم بذلوا جهداً ،

وأحكموا القياسات ؛ حتى يصير الأمر إلى هذا التساوي ، وتلك المحاذاة الدقيقة بالقطارات .

إنه الحد الفاصل بين حركة وسكون ، رسو وإقلاع معاً ، محدد ، لا يقبل التمويه ، أو الميل فلا بد له من استواء ، لابد له من وقفة وسعي واستنفار وخطو ، إنه البشارة باستقرار الأحوال وثبات المنظومة .

حركة غير عادية ، ركاب يروحون وآخرون يجيئون ، ركاب يتطلعون عبر النوافذ حائرين ، مستفسرين بالنطق أو النظر ، يقول أبي :

"السائق توقف بعيداً عن الرصيف .. تجاوزه" .

يبدأ حذري ، وتسري خشيتي ، ماذا سيجري ؟ كيف يمكن إصلاح الأمر المنطوي على خطأ ، كيف سيتصرف السائق ؟

لم يحدث هذا خلال أسفارنا معاً إلا نادراً ، يتصرف الجميع وكأن أذى سيلحق كل منهم ، رجل فوق الرصيف يرتدي الملابس الرسمية للمصلحة، تضفي عليه بعداً غير منظور ، تمثيلاً لسلطة ما ، يشير بيده ، يأمر الجميع بالتراجع أو سرعة اللحاق ، يضع الصفارة بين شفتيه ، ينفخ ..

حركة يسيرة إلى الوراء ، تحتك المصدات الدائرية ببعضها حتى يستقر الوضع . الركاب يتطلعون إلى ما يجري ، ربما ينزل بعضهم إلى الرصيف للسؤال وعودتهم بالأخبار الدقيقة ، لكن طوال ابتعادهم عن العربات تظل أبصارهم عالقة بالسيمافور ، بالمقدمة ، بهناك . حيث السائق ومساعده ، السائق بالتحديد : شخص ما يمسك بيده المفاتيح ، رغم أنه ليس الوحيد في هذه المنظومة إلا أنه الأهم ، المقدم على الإطلاق : كلهم يعرفون أن الأمر

متعلق بهذا الرجل الذي لا يرونه ، يركبون ويستسلمون ، وربما يقلقون إذ يتطلعون ويتعارفون ويصلون بالسلامة ، ويتفرقون إلى جهات شتى ولا يرون السائق . إن إحساسهم به يظل سارياً طوال الرحيل ، إنه هناك مع مساعديه . أولهما الفني والثاني العطشجي المسئول عن تلبية رغبة النار المندلعة من أكوام الفحم ؛ حتى تتأجج وتصدر الطاقة الدافعة .

إنهم في المقدمة ، حيزهم محدود ، لا يمكن عبور الركاب إليهم خلال العربات المتصلة ، ولا يمكنهم هم الاتصال مباشرة ، القاطرة معزولة ، تليها عربة الوقود ، ثم عربة البريد، الطرود المغلقة ، وربما عربة المساجين المرحلين تحت الحراسة المشددة ، ثم تدرج المستويات من أولى إلى ثانية إلى ثالثة .

المسئول عن هذا كله لا يتحدث إليه الركاب وما من وسيلة للاتصال ، في ذلك الوقت المبكر كانت الإشارات سائلة ، كافية ، قبل تطور الأمر ، وتركيب الأجهزة الحديثة ، لكن رغم كل شيء ظل موقع القائد معزولاً هناك في المقدمة ، بل إن عدد الطاقم قل ، أصبح اثنين على الأكثر ، ذهب العطشجي مع اختفاء الفحم والماء والنار وظهور المازوت والكهرباء وما يستجد .

إن القلق الأشد يبدأ إذا وقع الوقوف ما بين المحطات ، حيث لا أرصفة، ويصعب الأمر إذا امتد الخلاء على الجانبين ، حتى لو امتلأ بالنخيل وعيدان القصب أو الذرة أو أحواض الأرز ، أو الرمال الجافة .

توقف مفاجئ يعني الحيدة عن الخطة ، والخروج عن الأقوال المدونة وللمخاطبات ، عند وقوع ذلك الطارئ يفكر معظمهم في السائق ، ويودون

الاتصال به أو رؤيته ، حتى وإن لم يتطق فملامحه ربما تدل ، حتى المحصلون والمفتش وحراس القطار لا يعرفون شيئاً ؛ بل إنهم أشد فضولاً ، وقع المفاجأة عندهم مغاير ، مضاعف ، لكثرة رواحهم ومجيئهم وحفظهم العلامات .

مرات نادرة تلك التي توقف فيها السفر بمنأى عن الأرصفة ، الرصيف ليس بداية ونهاية فقط ، إنما سكينة ومعنى بلوغ .

لا بد للسفر الآمن ، المعترف به من رصيف ، أي خروج عنه فيه إمكانية هلاك مبين ، يكون خرقاً للمتبع واجتيازاً للفواصل .

للأرصفة الوقفة ، إما انتظار قادم أو تأهب لركوب ، عند قدوم خالي أو جدتي يبكر أبي في الذهاب مع علمه بالمواقيت الملائمة ، يعرف أبي موضعه، لا ينتظر عند أماكن وقوف عربات الدرجة الأولى أو الثانية ، لا يستفسر ولا يسأل ، تمسك يدي ، أتمنى لحظة دخول القاطرة السوداء المهيبة، أن ألمح السائق فقط ، أن أراه في وقفته خلال المرحلة الأخيرة ..

يتحدث أبي إلى القوم ، يألفونه بسرعة . أصغيت يوماً إلى باشجاويش يعلق إلى ذراعه أربعة شرائط حمراء ، يقول إنه تولى الحراسة على شخصية هامة : لم يغمض له جفن من القاهرة إلى أسوان ، صحبه إلى عربة الأكل ، موائد مغطاة بالفراش الحريري الأبيض المشغول ، مقاعد من جلد وثير ، بجوار كل منها مصباح على هيئة شمعدان مثبت إلى الجدار ، الملاعق والأطباق والسكاكين من فضة خالصة ، أما الخدم فيرتدون الملابس الزرقاء المزركشة المحلاة بالقصب الأصفر اللامع ، يحمل الواحد منهم طبق

الشورية مع أقصى سرعة فلا يميل ولا يهتز ، يقوم بالخدمة على أتم وجه كأنه في قصر ثابت ، راسخ الأركان .

يقول أبي إن بائع الشاي يتنقل من عربة إلى أخرى بصينية فوقها من عشرين إلى ثلاثين كوباً تمتلئ وإناء للسكر وآخر للنعناع يحملها بيد وبالأخرى يؤدي الصَّنعة ، تقليب السكر والشاي ، هذا الراكب يريده ثقيلاً والآخر يُحذر من السكر الزائد عن الحاجة ، القطار يتمايل وما من خطأ أو خلل ، يقول أبي "الرزق مُعلم" ، يهدر الآتي من أعماق الصعيد ، أتبع أبي خائفاً من فقده ، في الزحام تفوتني رؤية السائق ، الشملي من القاطرة السوداء وفحمها المشتعل ونيرانها الأوارة وبخارها الأسير ، الضاغط ، عربات الثالثة عديدة ؛ لذلك يصيح منادياً ..

" يا محمد علي باشا

يا محمد علي باشا .. "

يتطلع البعض - خاصة المخبرين - متعجبين ، ما هذا الرجل لابس الجلباب الذي يمسك بيد طفل صغير ينادي على باشا يركب الدرجة الثالثة، تلمح خالي مُطلاً من النافذة ، عمامته مغطاة بشال الصوف البني ، لم أر رأسه عارياً قط في المحطات ، صيفاً وشتاء ، مرة واحدة في سوق الأربعاء، استسلم لموسى الحلاق ، يجز الشعر ويجري له الحجامة تخفيفاً للضغط الكابس على دماغه ، دائماً يرتدي اللبدة المصنوعة من الوبر الثقيل ، يقترب رجل يرتدي معطفاً ويمس عصا قصيرة تحت إبطه :

" باشا وفي الدرجة الثالثة ... "

يلتفت إليه الوالد ضاحكاً :

" اسمه .. اسمه يا عم ... "

يزعق خالي عبر النافذة :

" يا احمد ... يا احمد ... "

يمد القُفة عبر النافذة ، مع أن للمحطة نهاية ، ولن تحدث حركة إلا بعد وقت كاف ، لكن ما من ثقة عند الطلوع ، وعند النزول أيضاً ، ثمة خشية من المفاجأة دائماً ، نحرص على الذهاب مبكرين " انتظر القطار لأنه لن ينتظرك " ، دائماً يتردد هذا المثل عندي : لا أعرف مصدره ، متى سمعته أول مرة ؟

فوق الرصيف رجال ونساء وأطفال ، بجوارهم القُفة والحقائب وصناديق الورق المقوى ، بعضهم يغفو : منهم القادم من قرى شرق النهر ، أو النجوع النائية بالغرب .

تحين اللحظة الحاسمة ، رغم أن القطار لم يظهر بعد ، إلا أن توتراً يبدأ وتحفزاً يسري ، الكل وقوف ، متطلعون إلى الجهة : لحظة دخول القطار يبلغ الدفع أشده رغم صيحات البعض بضرورة الانتباه ، أن يسقط إنسان ما بين العجلات قبل تمام الوقوف ، يستحسن عدم الاقتراب قبل كف العجلات عن الدوران ، لكن من يسمع ويتعظ ، لذلك تقع بعض الحوادث، يتذكرها القوم لفترة ثم سرعان ما تندثر التفاصيل ، القطار لا يتعطل ولا يتم حجزه إذا لقي راكب أجله بين الرصيف والعربات ، أو فوقها ، أو بينها، ما من مسئولية هنا على السائق البعيد ، القصي ، المتوحد

فى موقعه الأمامى رغم أنه المحرك ، المبدل ، المسرع ، المبطئ ، من بيده إمكانية الضغط على مفتاح أو مقبض فيوقف القطار كله بحنكة ودربة ، لا حرج عليه ، ولا مساءلة ، فالتعاليم جلية ، والمخاطر واضحة ومصير كل إنسان بيّن .

عند سفرنا من مصر لا نعرف الزحام ، المحطة بداية ، والبداية مهما طالت محدودة ، بالطبع الأمر يختلف إذا اختل التوازن ، مثل قلة القطارات وكثرة المسافرين ، كما جرى الأمر فى العقود التالية وما يزال ، لكن عند عودتنا كنا نعد للركوب ونحسب الخطوات ، ضبطنا مجرد محطة على الطريق ، الوقفة عدة دقائق ، لا تستمر طويلاً ، الركاب يغلقون النوافذ بإحكام حتى لا يلقى البعض بأمتعتهم عبرها ويتبعون ذلك بالقفز ، بعضهم يسد الأبواب أيضاً ، يبدأ صراع ثاقب ، مركز ، بين المستقرين بداخل والحائرين بخارج ، نجرى من هنا إلى هناك ، باحثين عن ثغرة ، الحقيقة أننا نتبع الأقارب الذى صحبونا من جهينة واعتبروا ركوبنا مهمة تتعلق بهم بكل ما يعنيه ذلك عند الصعيدى الأشم ، إن الدخول عبر النوافذ غير مطروح أصلاً لوجود أمى ، يلوح الفرج عندما تتردد صيحة :

" تعالى يا احمد .."

باب مفتوح

أمى أولاً ، أتبعها مع شقيقى إسماعيل وآخرنا أبى ، فى البداية يكون تصاعد وزنة من هنا ونهر أو زجر من هناك ، ثم تتدرج الأحوال ، بعد التحرك ، تفسح إحداهن موضعاً لأمى ، بعد مسافة أخرى يكتمل قعودنا ،

كيف ؟ لا يمكننى التحديد الآن .

مع الاقتراب من المحطة التالية ، طبعاً ، يصيح الركاب :

"أغلقوا الشبابيك .."

يقول آخر :

"امنعوهم من رمى القفف .."

يزعق ثالث :

" أقفلوا الباب .."

أدقق النظر، إنه نفس الشخص الذى كان يجرى فوق رصيف طهطا محاولاً الركوب من الناقلة ، من الباب ، من أى ثغرة .

***

زيارة

نخرج من مبنى المحطة إلى الميدان الفسيح ، يقف خالي بجوار الفقة أو الاثنين ، رائحته النفاذة المميزة ، إنه نحيل ، عيناه حزينتان ، يبتسم أحياناً ، أتطلع إليه بحب ، أحن إلى أيام جهينة ، ربما لوشائج غامضة تتصل بأنه حضر ميلادي وحملني على ذراعيه طفلاً عمره لحيظات وقرأ في أذني "الصمدية" ، مجيئه يعني تغير منظومتنا ، الخروج مرات بقصد زيارة أقارب يقيمون ناحية القلعة ، أو لزيارة عيادات الأطباء ، يشكو آلاماً في الأنف ، والعينين ، والأذنين ، يتوهم أوجاعاً غير مقيمة عنده ، يمضي إلى زيارة الأضرحة ، سيدنا ومولانا الحسين ، رئيسة الديوان أم هاشم ، ضريح فاطمة النبوية ، السيدة عائشة ، وصلاة الجمعة في مسجد السيدة نفيسة ، مرة واحدة سافرا إلى طنطا لزيارة سيد البدوي ولم نصحبهما ، يرافقه أبي أينما ذهب ؛ وزيارة المتحف الزراعي ضرورية ، يمضي يوماً على مقربة من عمل الوالد بوزارة الزراعة ، كان طويل السرحات ، يحملق عبر الفراغ إلى نقطة غير محددة ، نائية ، يستحلب الأفيون ببطء ، يجيئ من البلدة خلوا منه ، إذ يخشى السفر به ، حمله مثل التجارة به ، التعرض لكبسات مفاجئة من

الشرطة الخاصة أمر متوقع ، بمجرد نزوله فوق الرصيف يتبادل الهمس مع الوالد ، يبدو أبي مرتبكاً ، لم يعتد التعامل مع المخدرات ، لا تدخين الحشيش ولا الأفيون ، يعتبر ذلك مخالفة جسيمة ، لم يدخن سيجارة إلا إذا أهداها أحدهم إليه ، لكنه يبدو حريصاً على إرضاء خالي ، على ألا يغضبه طوال أيام زيارته ، حتى أنه كان يرجو أمي أن تنسى أي غضب شعرت به تجاهه ، ويقسم لها أنه حريص على البيت وعليها ، ولو كان اضطر إلى الزعيق أو التفوه بما لا يليق فإنما بسبب ضيق ذات اليد ، وعسر الأمر ، المهم ألا يبدو منهما ما يعني وجود خلاف أو شقاق أمام أخيها ، لكن .. من أين يحضر الأفيون لخالي ؟

بحذر شديد تقصى من خلال جلسته بفندق الكلوب المصري القريب من مسجد سيدنا ، دله عمر الطباخ على خياط بلدي بناحية الدرب الأحمر ، وأعطاه علامة ، تعرف به وصار يتردد عليه كلما جاء خالي ، يعود منهكاً ، متعباً يتصبب عرقاً بمجرد دخوله البيت ، يفرغ شحنات خوفه المؤجل ، يتناول خالي القص الصغير في حجم حبة العدس ، يلفه بعناية في ورق السلوفان ، يتذوقه بطرف لسانه ، يضعه تحته ويبدأ انفراده ورحيله بالنظر إلى حيث لا ندري ، خلال هذا الوقت ينعزل تماماً ، لا يجيب إذا نودي ، ولا تتحرك عيناه إذا مر أحد من أمامه ، أرقبه وأتصوف على أطراف أصابعي ، أتوقف إذ أصغي إلى آهة مركزة ، قصيرة ، تبدو كأنها صادرة عن شخص آخر ، ذات أصداء تماماً كزعقة قطار أوغل في قطع الليل العميق .

***

الملكي

لم أعرف بوجود قطار مَلَكي خاص إلا ذلك اليوم ، عندما اضطررنا إلى قطع المسافة التي تستغرق عادة من تسع إلى عشر ساعات في يومين كاملين ، ذلك أن الآتي القادم من الجنوب الذي ركبناه ظهراً من طهطا ، طالت وقفته عند محطة ملوي ، ثم تحرك ، ولكن إلى جهة لم نعهدها من قبل ، إلى خط حديدي فرعي ، لا رصيف له ، نرى من خلال النوافذ أرصفة الذهاب والإياب ولا نبلغها ، قال والدي بعد أن تيقن من صحة الخبر ..

"الملك سيمر"

ياه .. الملك مرة واحدة ؟

يمر راكباً القطار الملكي فوق خط السكة الحديد عينه ، لكن من أجله يجب التنحي تماماً ، الخروج من الخط بالكلية ، وإحاطة العربات بالحراس الذين تبدو عليهم شراسة مغايرة ، صماء ، كلهم بيض وعيونهم زرقاء أو خضراء ، إنهم أتراك . لا .. هم ألبان وكلهم أغوات تحملهم مركبات

خاصة ، ولهم طعام مغاير ، كل ما يتصل بالملك لا يمت إلينا ، إنه فخم ، ضخم كما نعرفه من صوره ، أكول ، نَهِم ، يقدمون إليه الخروف بعد سلقه وتركيزه في فنجان من الذهب الخالص ، يفطر بمصاص الديوك ويتناول عشاءه من كلاوي الحمام المفرومة ، المذابة في دهن الخروف الساخن . يمكنه مضاجعة عشر نساء يومياً ، يستطيع منازلة عشرة مصارعين مثل الذين نراهم في الموالد وبعد صلاة الجمعة ، يجيئون إلى الساحات الخالية ، يوثق أحدهم بالحبال الغليظة ويتقدم الناس ليحكموا الحبل حوله ، ثم يبدأ زميله في الصياح والتنبيه إلى استحالة الفك والخلاص ولكن القوة الخارقة ستحسم ذلك ، كل المطلوب تشجيع صاحبه ، ملاليم فقط من أصحاب القلوب الجامدة ، يطوف على الواقفين يطبق من الصاج .

لو أوثقوا الملك بسلاسل من حديد يمكنه فكها ..

إذن من يغلب الآخر ، هو أو تشرشل إذا نزلا الحلبة ؟

هو طبعاً ، ألا ترون ضخامته وفخامته وصحته البادية .

هل يدخل الحمام مثلنا ؟

هل يعرف المغص ؟

نَحارُ أمام الأسئلة العويصة ، نرددها بيننا في الحارة أثناء اللعب وننتظر الإجابات لعل وعسى ، ها هو الظرف يدفع بي إلى طريقه ، كلانا سيمر بنفس النقطة ، في وقت معين سيصبح بمحاذاتنا ، سأحكي ذلك للأولاد بعد عودتنا ، لسناه بالتحديد ، الملك الذي مرّ ، وأطل ، توقف وصافح ، وسأل عن الصحة والأحوال .

ياه ... انتك ؟

نعم ، بنفسه

بدأ التراخي يَسْري إلى وقفة الحراس الأشداء ، استند أحدهم إلى بندقيته، واقترب آخر من صاحبه ، ثم افترشوا الأرض بعد أن بسطوا ملاءات أو فرشاً رمادية تحمل زخارف حمراء .

يهن ضوء النهار ، لا شيء ينبئ باقتراب مرور جلالته ، بل إن حركة الحراس ، والرجال الذين يظهرون لثوان ثم يغيبون تنبئ بوقت سيطول ، وقفة لا يعلم مداها أحد ، راح عجوز يرتدي جبة وعمامة ، يقول إنه تأخر كان المفروض أن يدخل الآن إلى بني سويف ، بعد قليل يتردد صوته ذاكراً الوضع الذي يتناسب مع الوقت ، يستدعي الأماكن إلى الزمن المتجمد قسراً ، حتى إذا نزل الليل قال إنه من المفروض الآن بلوغ محطة مصر .

مع اكتمال العتمة دنا أبي منا . أراد التحويط علينا ، خاصة بعد أن صرخت امرأة فزعة ، وصاحت :

" يا قليل الأدب .. "

سمع الركاب صوتاً هادئاً، لكنه هدوء المصمم، الراغب، المتوتر ، العازم .

" لم أقصد .. "

بعد قليل صاحت المرأة :

" بوه ... "

ثم قالت :

" كل هذا لأني وحدانية .. "

ارتفع صوت من أقصى العربة نامراً .

حوالي العاشرة ليلاً جاء أحدهم بكلوب ، علقه في منتصف العربة ، الوجوه متعبة ، آوت إلى صمت بعد كثافة حديث ، وبدا زحام أمام دورة المياه ، وبكى طفل بإصرار حتى بعد إخراج أمه لثديها وإرضاعه ، قالت أمي إنها ستنفجر ، لكن أبي طلب منها أن تصبر ، في مغادرة المقعد الآن مخاطرة ، والرجال يزحمون الممر إلى دورة المياه الوحيدة ، غفوت ، استيقظت على زغرودة طويلة ، قال جارنا إن أحدهم تبادل الحوار مع راكب يجلس إلى جواره ، تعرف كل منهما بالآخر ، قص هذا على ذاك السبب الذي جعله يرحل ، وأفضى الثاني بدوافع قبوله الغربة ، وأصغى إلى الأول عندما تحدث عن واجباته تجاه شقيقاته الثلاث ، طلب الثاني يد أوسطهن ، وافق الآخر ، قرءا الفاتحة وأشهدا الشيخ المعمم ، وحقّ للعربة أن تفرح ، لكن الليل امتد ، والساعات ثقال ، وتمدد البعض فوق الأرفف وارتفع شخير ، وعند الفجر نشبت مشاجرة كادت تؤدي إلى تداخل كافة الركاب في بعضهم ، لولا ظهور جنود شرطة يرتدون الطرابيش ويشهرون السلاح ، بعدها أعلن رجل متحشرج الصوت :

" انت طالق بالثلاثة .. "

ردد أحدهم بتأن :

" إن أبغض الحلال عند الله الطلاق .. يا ساتر استر "

لا يعرف الجميع من أين ظهر هؤلاء الباعة ، كل منهم يحمل سبتاً معلقاً

إلى ذراعه معبأ بالكعك السميط ، والبيض المسلوق ، والجبن الرومي ، والجبن الأبيض ، والحلوى الطحينية ؛ وعبر بائع الشاي الزحام والأجساد المستلقية على الأرض بصينية مزدحمة ، وكما قال أحد الركاب إنه جاء في موعده تماماً .

حوالى الخامسة بعد الفجر ؛ دوى أزيز مكتوم ، أول من أصغى إليه المتمدّدون فوق الأرضية المتسخة ، يلصقون آذانهم بالأرضية المكونة من الخشب والحديد ، وصدمة مكتومة . خافتة متزايدة ؛ بقدر نأيها تقترب بسرعة ، تبدد بقايا الليل ؛ أضواء نافذة مجهولة المصدر ، تتوهج العربة بأزيز النور الخاطف ، المبهر الذى غمر القطار كله من خارج ومن داخل ، يتعاظم الضجيج حتى يلغي كل ما عداه . ينتظم الجنود الألبان بملابسهم التقليدية القصيرة وطرابيشهم غامقة الحمرة ؛ يشهرون أسلحتهم صوب نقاط غير محددة فى الفراغ .

"لا يعرفون التفاهم .."

"هم فى منتهى القسوة"

"القتل عندهم كالتنفس .."

تغلق كافة النوافذ فى لحظة واحدة ، لا يرى القوم شيئاً ، تحتجب المرئيات خارج العربات ، الضوء نافذ رغم الإغلاق الحتمى ، فى البؤرة منه يبدو وجه الملك المستدير ، المتلئ ، ونظرته المشرفة ، العلوية ، مجرد لحيظة، سرعان ما يختفى أثره ، يتحد بالأفق البعيد ، الدائرى .

***

ثار الماء

القطارات للعبور . الإقامة فيها مؤقتة ، كل له وقت معلوم ، عند لحظة معينة ، وموضع محدد يغادر ويصعد آخرون ، له الحركة والانتقال . لو لزم الثبات لهذا يعني انتهاء وظيفته وانقضاء مهمته ، ونفاد وقته .

عند مرحلة معينة تدخل العربات إلى خطوط حديدية فرعية محاذية للخطوط الممتدة ، لا أرصفة هنا ، إنه المخزن المؤقت الذى يسبق فك التوالد، والمقاعد ، وإرسال كل عنصر داخل إلى جهة .

كثيراً ما تطلعت إلى تلك العربات الرابضة ، الصامتة ، أرى فى ملامحها حزناً غامضاً ، يضفى تردد الأنفاس حيوية وأنساً ، لا يكتمل القطار إلا بالبشر والحركة ، عبور المدن من خارجها أو من خطوط توسطها، والجسور ، منها الكبير الممتد والقصير الذى لا يكاد يلحظ ؛ يشعر به القوم من تغير صوت العجلات ، أول جسر يلى محطة مصر بمسافة قليلة وزمن يسير ، إنه كوبرى امبابة ، حديدى التكوين يمكن للناظر من النافذة رؤية مياه النهر تحته مباشرة ، صرت أعرف ذلك ، أنظر بانبهار

تلك اللحظات التي يلوح فيها الماء عاكساً صورة العربات ، يتاح لي رؤية أسفلها ، والنار البرتقالية المضطرمة في النهر ، قطار آخر موازٍ تماماً للقطار الذي نركبه ، لكنه يمضي مقلوباً بالنسبة لنا ، ألمح رؤوساً مترجرجة ، أين صورتي ؟ أين انعكاسي ؟ لا يمكن التدقيق مع الحركة .

عند السفر جنوباً يكون اجتياز الجسر الحديدي إيذاناً بخروجنا من المدينة وبدء الإيغال صوب الصعيد ، حتى نهايته تكون السرعة ما تزال في بدايتها هادئة ، موثقة ، ذات إيقاع مرح ، وعند العودة يكون بلوغه علامة على دنو الوصول بعد ساعات طوال من الجلوس فوق المقاعد ، تجري التهدئة تمهيداً للوقوف ، تتخذ الحركة المألوفة سمات مغايرة ، إذ تتعدد القضبان المتصلة ، الفاصلة ، تهتز العربات مع عبورها الفواصل ، إنها تمنح المغايرة بين أصوات الانطلاق والتمهل وللأصوات وقفة .

ثمة جسور متوسطة ، أخرى خاطفة ، يتغير الإيقاع ، ربما يولي بسرعة لو يستمر ثوانٍ طبقاً لطول المسافة ، ونوعية الجسر الممتد : بعضها من حجارة ، والآخر من حديد ، حديد القضبان الممتدة على فراغ مع حديد العجلات ، يكون للاحتكاك ضجيج ، ولكم عبرت من الجسور ، لكن يظل لكوبري امبابة السبق ، وأول أبجدية الانتقال من ضفة إلى ضفة ، من نقطة إلى نقطة ، فلا يكون الجسر حقاً إلا إذا وصل ضفتين ، وقرّب ما بين نقطتين ، دائماً أرى هذه النار الصفراء ، البرتقالية ، الفائقة ، الإوارة ، المتوهجة ، تشتعل في خضم الماء، تنبعث من فوق القاطرة إلى أسفل ، تتحد باليم، لا يطفئها موج، ولا مرور الأوقات على النهر المتدفق من بعيد.

لا يفكر أحد في النزول عند عبور الجسور ، وإذا شرع فإنه مطارد أو

ساعٍ إلى حتفه ، كنت أنظر من النافذة ، انتبهت إلى شاب يقف عند باب العربة المفتوح ، كان هادئاً ، مطرقاً ، يمسك ذقنه بيده ، التقت عيناه بعينيّ ، رغم هدوء ظاهره إلا أن خوفاً سرى إليّ : ماذا يدفع مثله للوقوف هنا ، لماذا يبدو ساكناً في موضع يقتضي كل توتر وانتباه .. ؟

فجأة : ألقى بنفسه ، دفع جسده ، رمى بذاته ، نفذ إلى النهر عبر فجوة بين القضبان ، لم أر لحظة اصطدامه بالماء ، لكنني لمحت النيران المنبعثة من القاطرة ، تمشي متألقة ، منصهرة في الماء ، وعندما تلفت حولي ، لم أجد شخصاً واحداً يتابع أو ينظر إلى أعقاب تلك السقطة ، وكدت أوقن أنهم شاهدوا وصمتوا لسبب لا أعلمه ، وحتى تدويني هذا لم أفضِ بما رأيت إلى أقرب الخلق وأعز الصحب .

***

إغفاءة

طال الوقت علينا لنغفو ، مع أن نومي على المقاعد نادر ، لا أهجع مع الحركة إلا مضطراً ، إذا غلبني أمر ونفذت طاقتي ، كيف ينام الإنسان مع الحركة ، وعندما سمعت قائلاً يخبرنا بوجود عربات نوم تنقسم إلى درجتين، أولى وبمقاصيرها سرير منفرد ، ثانية وتحوي على اثنين أو أكثر ، أي يمكن أن ينام راكب مع من يجهله ، كيف ؟ صعب تخيل ذلك عندي ، أول معرفتي بوجودها عند مرورنا أمام المقهى الافرنجي داخل فناء المحطة الفسيح ، فوق لافتة مضاءة حروف سوداء غليظة .

"شركة عربات النوم الدولية"

- هل توجد عربات للنوم يا أبي ؟

- نعم

قال إنها لا توجد إلا في مسافات الليل ، أي تلك التي تبدأ التحرك ليلاً، إنها سريعة جداً ، لا تقف إلا في أسيوط لتغيير طاقم القيادة ، ثم تواصل حتى الأقصر ، معظم الركاب أجانب ، قدموا للفُرْجة على آثار الفراعنة ؛

تتكون العربات من مقاصير نوم ، مفروشة بالأغطية الحريرية ، والأرضيات مغطاة بالسجاد العجمي ، والأسقف مدلاة منها النجفات الثمينة .

كيف ينام المسافر ؟

هل ينام بثيابه التي ركب بها ؟ أم يبدلها ؟ عندما يستيقظ كيف يغسل وجهه ؟ .

لماذا يسافر الإنسان ليلاً ؟

ماذا بوسعه أن يرى ؟

لا يرحل ليلاً إلا المضطر ، والمجبور يمكنه النوم أو الإغفاء ، بتأثير تعب، أو رغبة منه في تقصير المسافة ، لحركة العجلات إيقاعات ، كذلك اهتزاز العربات المترابطة ، المشدود كل منها إلى الآخر أثناء اندفاعها عبر الليل ، تتوالى تلك الإيقاعات متصاعدة لتفرق ، منها ما يهدهد ، ومنها ما يفكك المتلملم ، ورغم أنها باعثة للضجيج ، والضجيج يحول دون الإغفاء ، إلا أن توالية لفترة ، وإحاطته بالمعنيين ، المتهكين يؤدي بهم إلى الوسن .

***

فتى

لم ينتبه إليهما أحد في البداية ، لكن بمجرد ابتعاد القطار عن رصيف محطة أسيوط ، ولأسباب شتى منها بصمات الكبير إلى الصغير ، وتنافر مظهرهما ، جعل الأنظار تتوقف ، تلتفت ، والألسنة تنطق التساؤلات ، جرى همسٌ ، فتشاورٌ ، وعند حد معين ؛ بدأ تدخل بعد أن أصبح كل شخص في العربة ، رجل أو امرأة ، محاطاً علماً بما يجرى .

الكبير يرتدي الملابس البلدية ، طويل العنق ، بارز الحنجرة ، نافر العينين ، غليظ الشفتين يرتدي جلباباً من صوف ، يبرز الصديري البلدي تحته من فتحة العنق ، حذاؤه عسكري أسود ضخم ، يداه متشققتان ، قدر البعض عمره بالخامسة والعشرين ، أو الثلاثين .

الصغير ربما في الثالثة عشر ، أو الرابعة عشر ، لكنه لن يزيد عن الخامسة عشر ، دُرة في الحسن ، يعلق به النظر أولاً في مجمله ، ثم تتكشف التفاصيل المكنونة ، شعر ناعم ، غزير ، حاجبان كثيفان ، عينان ترسلان ألقاً يتكسر عبرهما الضوء . ينعكس في إشعاعات قصيرة ؛ ثمة صلات

خفية لا يمكن تحديد عناصرها أو إدراك أسرارها تصيغ جاذبية خاصة لهذه المنطقة من الوجه ، ما بين الحاجبين والعينين وحتى بداية الوجنتين ، ما بينهما أنف دقيق ، محدد ، لا زيادة فيه أو نقصان . أما الفم فمركز أفقي ، له مع انحناءة الذقن رجع وترديد ، تنمي أي أنثى صبوحته ونداوة طلته ، كان يرتدي قميصاً من حرير ، وبنطلوناً قصيراً يكشف فخذيه القويين الأملسين ، البادي منهما زغب ذهبي له لمعة ، لم يكن حضوره متسقاً مع ما يحيطه ، الدرجة الثالثة وركابها ، صحيح .. لا يوجد ما يحدد سماتهم ، أو ملامحهم ، لكن الأنساق متقاربة ، إذا ظهر أحد ركاب الدرجة الأولى الفاخرة سيلحظ وجوده التنافر بنفس القدر الذي يرصد به أي راكب من الدرجة الثالثة يخطو إلى هناك ، لا يوجد ما يحدد ويعين ، لكن يحوي الواقع ما هو أكثر من المواد الحاظرة ، أو النقاط المانعة ، والفروق بالنسبة للعربات محددة بشكل قاطع حاد : للدرجة الثالثة عرباتها ، وللثانية أيضاً ، وللأولى ، واجتياز راكب من الأولى إلى الأعلى يعرضه للعقاب المترتب على المخالفة ، خاصة أن للمحصل والمفتش وكل من يرتدي زي مصلحة السكك الحديدية في ذلك الوقت هيبة ومقام محفوظ ، تماماً مثل جندي الشرطة الذي لم يكن يحمل سلاحاً ، لكن مجرد زعقته كفيلة بتيبيس الأطراف ورجفة القلوب الجامدة .

ظهور الفتى في عربة الدرجة الثالثة أول انكشاف الأمر وهتك السر ، مجرد جلوسه على مقعد هنا مثير للانتباه ، للاستفسارات ، غير أن ما عجل به نظرات الشاب بارز الحنجرة وميله عليه ولمساته له وإقدامه على ضمه إليه بين مسافة وأخرى ، بدا وكأنه يتعجل الأمر ، غير قادر على إخفاء نزوعه

لمجاء الفتى ، أثار ذلك رجلاً من أهل الجنوب القصي يجلس إلى جوار امرأته بمواجهتهما ، كان ملفوفاً في عباءة سوداء ، عمامته عالية ، يبدو مهيباً، جاداً ، مظهره رادع ، لا ينطق عبثاً : أبدى تذمراً ، ونفخ عدة مرات بضيق، ومنه تسرب الفضول المجنح والتبرم بما يجري إلى الآخرين، جرى همس، وكلما انتقل من مقعد إلى آخر أضيفت تفاصيل، ونسبت وقائع لايدري أحد صحتها أو زيفها ، وعندما وصلت إلى الموضع الذي نجلس فيه ، سمعت أبي يقول لأمي :

"فيه رجل ضحك على ولد ابن ناس .."

سرى في الوضع ما يؤكد الحال ، هناك فتى مثل القمر ، سبحان من صور ، أسير شاب قبيح الشكل ، يبدو أنه غجري أو لص ممن احترفوا خطف الأطفال الصغار ، لكنه وقع هذه المرة على لقيّة ، كنز من الجمال والأبهة ، كأنه لم يتناول منذ طفولته إلا الحليب ممزوجاً بعسل النحل ، يبدو أن القبيح استغل ظرفاً مر به الفتى ، وجده ماشياً بمفرده في أحد شوارع أسيوط ، كان يبدو حائراً ، تائهاً ، أغواه بالكلام وصحبه ، استسلم الفتى له وركب معه ، الاثنان يقصدان مصر .

قال البعض إن الشاب الذي يبدو فاجراً يقبل الفتى في فمه ، ويضمه ، وأنه مقيم معه منذ يومين ، نزل به في فندق رخيص : نال منه ما نال ، الفتى مضحوك عليه ، ولا يدري أحد ماذا فعل له أو به حتى يتبعه هكذا طائعاً . يلتفت إلى الناحية التي يتوجه إليها ، وينثني إذا تراجع عنها ، يلبي ما يطلب منه بالنظر : يبدو مأخوذاً ، معمول له عمل .

البعض روى التفاصيل مظهراً الغضب والحسرة ، غير أنهم أضمروا الرغبة في الحلول موضع بارز الحنجرة ، المتسخ ، الذي يبدو أن جسده لم يعرف الاستحمام منذ شهور .

آخرون عبروا الفواصل بين العربات ، توقفوا للبص ، للنظر ، عادوا إلى رفاقهم في السفر ليضيفوا ويفصلوا . يمدحون الحسن ويذمون قبح الشاب، نعكس أصواتهم حسداً ورغبة مكتومة .

الفتى من بيت كريم . كيف عرف الركاب ذلك مع أنه لم ينطق ولم يتكلم إلا عندما جاء البكْ الكبير ، قبل وصول القطار إلى المنيا : بالتحديد عند اجتيازه محطة دير مواس ، جاء رجل ضخم الجثة ، غليظ الرقبة ، عظيم النظرة ، طربوشه أحمر قان ، يميل على جانب ، وسلسلة ساعته الذهبية تصل ما بين جيبي صديريته ، يتقدمه حارس مهيب ، وناظره ، والمحصل ، والمفتش ، ويتبعه شابان أشداء ، لكل منهما شارب كث ، قال البعض إنهما ابناه ، وأكد ركاب آخرون أنهما موظفان عند الباشا ، من اتباعه .

من الرجل ؟

لا أحد يدري .

كيف أحيط علماً بوجود الفتى ، من دله ، من أطلعه ؟

لا أحد يعرف .

حضوره إلى عربة الدرجة الثالثة بلمه من الأمور النادرة ، ظهور مثله هنا استثناء ، تماماً مثل حضور الفتى ، لكن مجيئ سيادته لم يكن بقصد الإقامة،

إثر التدخل الحازم ، وصحبته الفتى إلى حيث يجب أن يوجد : إلى الدرجة الأولى ، إنه ابن عائلة كبيرة ، ويجب الحفاظ عليه حتى إعادته سليماً إلى أهله .

من تكون تلك العائلة ؟

هل يمت إليها الباشا بصلة ؟

هل هو باشا فعلاً ؟

لم يجزم أحد بإجابة قاطعة .

لكن الجميع تحدثوا عن وقفته لحظة رؤيته الفتى ، وتمتمته : سبحان الخالق ، ما شاء الله ، ما شاء الله . ونظرته شزراً إلى الشاب الذي بدا مرعوباً ، مرتجفاً ، ميالاً إلى طلب الصفح ، ساعياً إلى تقبيل القدمين ، مستسلماً إلى قبضة الجندي الذي أمسكه من قفاه ، أما الباشا فأحاط كتف الفتى بحنية ، وربت خده ، ولم يفارقه حتى دخل به مقصورته في عربة الدرجة الأولى ، وأغلق الباب أحد الشاويش التابعين .

***

جدة

عندما نزلت ستي لأمي إلى رصيف المحطة بدت مشوقة ، حانة إلى كافة ما تعرفه ، وما ألفته من موجودات ، جاءت بمفردها ، ترتدي الشقة السوداء ، لا يبدو إلا وجهها الموشوم عند الجبهة والذقن بلون أخضر غامق يحدد أشكالاً مثلثة متداخلة بالدوائر .

نظراتها مغايرة لكل مرة رأيتها فيها ، تتطلع إلى نقطة ما في موضع يصعب تحديده ، إلى الفراغ ، كانت نحيلة ، طويلة ، سمراء ، حادة الملامح، رحل زوجها وهي دون العشرين ، كان شيخاً ، يؤم المصلين ، يعقد القرانات ، يبصر بأمور وتفاصيل ، يصلح ما خربته الأيام بين النفوس ، وفي ليالي رمضان والأعياد والمواسم يعلو صوته بالمديح ، ينشد أعذب القصائد ، تتسلسل سلسالاً رائقاً صافياً من خلال نبر صاف بديع ، وبعد رحيله المفاجئ بأكثر من نصف قرن كان هناك من يذكر عذوبة صوته ، وتمكنه ، وحفظه للأشعار المتينة ، لم يكن للأسرة من معين ، ولا ولي حميم تخرجت جدتي إلى الأسواق ، تخفي ملامحها بإزار ، وتقف لتبيع القمح

والفرة والفول والسمسم ، إلى جوارها ابنها البكري محمد ، وهو خالي فيما تلي ذلك ، هذه النحيلة ، الفارعة ، كانت قوية ، متينة ، صدت الساعين إليها بلطف ، وصار معروفاً ، مفهوماً للقاصي والداني أن عائشة بنت بيت باشا وهبت حياتها لأسرتها ، وأنها لن تعرف رجلاً بعد زوجها ، هذا وضع معروف في صعيد مصر ، تخرج المرأة إلى الحياة العملية لكسب الرزق ، وما يقيم الأود ، ولدفع الضر عن اليتامى ، فيهابها الكافة بل إنها تصير في حماية القوم طالما لزمت الجوانب المرعية .

بدأ وعيي بها طفلاً صغيراً ، أدركتها بداية وهي قبل الخمسين أو بعدها بقليل ، كانت بالنسبة لي ملاذاً وجانباً آمناً ، آويت إليها ليالي عديدة ، أصغت إليّ طويلاً عبر تلك الأمسيات ، وتلوت عليها صفحات من خيالي ، أبدت الجزع والدهشة ، وبثت عندي الثقة ، وأمنت لي الإصغاء ، وكان يجب أن تمضي سنوات عديدة ، طويلة ، لكي أتأكد من حاجة الإنسان إلى من يصغي إليه ولو مرة ، وربما يفسر ذلك انفتاح الغرباء وتواصلهم خلال الطريق الطويلة مع توالي المحطات وتعاقب الوقفات ، حتى أن زيجات تمت من خلال تعارف اثنين ببعضهما ، وصفقات عقدت بين من لم يلتقيا من قبل ، وأدق الأسرار جرى البوح بها بين من لم يتعارفا قبل ركوبهما وتجاورهما ، ثم افترقا ولم يجمعهما قط ، أتاحت لي جدتي هذه النعمة ، عليها كامل الرحمة .

حضورها المكتمل يضفي على البيت سكينة ، ويختفي التوتر الذي يصاحب الوالد عند زيارات خالي ، خالي يطلب فيجب أن يُلبى ، لكن جدتي تتبع ، تنتظر فراغ الوقت تمضي إلى الأولياء والمراقد ، وأحياناً تطلب

الخروج إلى ميدان سيدنا ومولانا الحسين فقط لترى الناس ، أي ناس ، وتعود إلى بيتنا الضيق فلا تزيده إلا رحابة ، ولا تضفي عليه إلا وسعاً .

علقت بروحي رائحتها ، لكل إنسان عبقه ، وما تنسمته منها لم يتكرر شبيهه ، أو حتى ما يقربه ، كنت آوي إلى حضنها وسرعان ما أغمض عيني وأذهب إلى نوم هادئ لم أعرفه قط فيما تلى ذلك من أيام .

كان وصولنا يؤدي إليها ، إلى بشرها عند استقبالنا ، واستيقاظها مبكرة قبل أي إنسان ، لتوقد الفرن ، ولتعجن الفطير ، ولتهيئ العسل الأسود في أطباق والجبن القديمة ، هذا إفطار أول يوم ، عادة لم تنقطع ، أما الغداء والعشاء فلهما الخضار باللحم في الأواني الفخارية ، رائحة تبعث لتغطي الدرب ، للطعام منها مذاق خاص ، تماماً كرائحتها وطريقتها في النظر ، كان لها سرحات مصمتة ، مستديمة ، متملئة باللاشئ .

ركوب القطار في العودة تصاحبه وحشة فراقها ، والبعد عنها ، وبدء الشوق إليها ، لم أعرف جدتي لأبي ، قتلت وعمره عامين ، فصلت الأمر في كتاب التجليات فليرجع إليه من يرغب ، لكنني أقول بتخيلي لها ، ملامح محددة تمثل عندي لحظة ذكرها بالسمع أو التداعي ، كأني عرفتها ولزمتها ، مع أن أبي لم يتحدث عنها كثيراً أمامنا .

في هذه الزيارة بدت جدتي ساكنة ، هدوء لم أعرفه من قبل ، تغدق حنوها بفيض غير منقطع ، وشجو مستتر لم أطلع على معناه إلا عند استعادته فيما تلى ذلك من أعوام ، ونظرة تحاول التشبث بما ينطبع عليها وبها ، نظرة استعدتها بعد سفر أبي إلى الأبد ، عندما علقت بطلّته الأخيرة

نحوي ، وهذه الحال الوداعية عرفتها بذاتي في حال آمل أن تتاح لي الفرصة لأرويه في تلك الدفاتر ، ضمت أمي فوق الرصيف ، حتى أنها قالت دهشة، متوجسة أثناء عودتنا ، "ما لها كانت تتملى مني وتحتضني كأنها لن تراني ..

وبعد لحظات تقول :

"استر يا رب .. "

صافحت جدتي باليد كل من لقيته ، وبالنظر كل ما استطاعت إليه سبيلاً ، حتى أسطح الجيران ، والأفق الغربي حيث الأهرام البادية ، والشرق حيث حد الجبل وبداية الصحراء الشرقية ، وعندما استقرت إلى جوار النافذة وأوصى الوالد بها حارس القطار ، وقفنا نتبادل النظرات ، أقلع القطار بطيئاً في البداية ولكنها لم تختف ، بقيت مطلة من النافذة ، شاخصة ، حتى بعد غياب العربة الأخيرة وتضاؤلها ، وصعودها التدريجي في ذلك الضوء الأزرق الغائم ، هذه الدرجة من الزرقة التي صهرت كل ما عداها ، واحتوت القطار بركابه ومحطاته وأرصفته وإشاراته وساعات رحيله وأيام طوافه ، تلك الزرقة التي لا تموج فيها والتي وجدت مشارفها بعد ثلاثة وأربعين سنة عن تلك اللحظة ولكن .. قُدِّر لي أن أصفها بعد استيعابي وإدراكي .

***

الأولياء

مَنْ قصد الصعيد في تلك الأيام ، وبلغ عمري الآن ، لا بد إذا أمعن الذاكرة أن يستعيد ملامح هذا الشيخ الجليل ، الممتلئ قليلاً ، عمامته خضراء ، صوته أجمل وأغرب ما عنده ، أما الجمال فإنني لم أعرف له مثيلاً رغم هيامي بالسماع وميلي مع كل صوت حبوب ، طروب ، نفاذ ، وأمدي هنا قديم ، أما أنه أغرب ؛ فلقدرته على إصدار أصوات الآلات الموسيقية ، من عود وكمان وناي وأرغول وآلات إيقاع وقانون فكأنها ماثلة أمام الركاب ، ثم يبدأ بالصلاة على المصطفى المختار عليه الصلاة والسلام ، ويثني على آله وصحابته ، ثم يبدأ بذكر من مثواه في مصر منهم ، أولهم طبعاً حبيبنا ومولانا سيد شباب أهل الجنة ، ثم تتوالى الأسماء مقترنة بالمراقد وأماكن النواحي الضامة لها .

يصمت الجميع مصغين له ، يتمايلون على درجات صوته ، عندي يتغير الضوء الحاف به ، وأقصده ببصري آمناً مطمئناً ، راغباً في السعي إليه ، كان يظهر دائماً في التوقيت عينه ، أي في المكان ذاته ، ما بين العياط والبدرشين،

حيث يبدأ تكاثف النخيل وتوالي الأهرامات الخفية، الظاهرة .

إذ يفرغ بشق ما بين المقاعد راسخاً : ثابتاً : لا يميل ، يتطلع إليه الكافة بمهابة : لا يمدون إليه قرشاً أو أي نوع من الهبات ، بل يوزع على الجميع طلاته الباعثة للدعة ، ويختفي عند الباب المقبل .

العجيب : أنني ما حللت ضريح أحد الأولياء الذين ذكرهم : ولحظة اجتيازي الباب الفاصل ما بين خارج وداخل إلا وينبعث صوته ذاكراً اسم صاحب المقام ، والمكان ، لكنه لا يأتيني من بعيد ، إنما من عندي ، مني ..

***

قيـــام

فرجة..

حتى ذلك العام لم أتعرف على البحر : بالضبط سنة واحد وستين وتسعمائة وألف ، تجاوزت السادسة عشر بشهرين : في يوليو خرجت من بيتنا في الجمالية بصحبة والدي ، مرتدياً زي فرق الفتوة العسكري الرمادي، قصدنا محطة مصر حيث تجمعت كتيبة مدرسة العباسية الثانوية الصناعية ، أصر أبي على صحبتي ، على توديعي : إنها المرة الأولى التي أغيب فيها أسبوعين متصلين عن البيت ، صحيح أنني خرجت مع فريق الكشافة خلال دراستي الإعدادية في رحلات إلى القناطر الخيرية وإلى حلوان وإلى ساحة مسجد الحاكم بأمر الله الذي كان خرباً في ذلك الحين ، لكنني لم أركب قطارات ولم تطل غيبتي إلا ليلة واحدة : الأمر هذه المرة يختلف .

عندما أصبحت فرداً في التجمع ، وانتظمنا صفوفاً للاتجاه إلى القطار ، ودعت أبي بالنظر ، صرت مرحاً ، خفيف الخطى ، ذلك أنني وقفت على ما سرّني ، لأول مرة سأركب الاتجاه المضاد ، الرصيف مغاير ، والعربات تتجه إلى بحري وليس إلى قبلي ، سيتاح لي الوقوف على ما يوجد هناك ، رؤية

التفاصيل المغايرة ، أرض أراها للمرة الأولى ، بعد تحرك القطار المتمهل في البداية ، المتزايد ، بعد أن نما إلى سمعي صفيره المتصل هفا قلبي إلى أهلي ، وعرفت تلك المكمة التي ستفجأني كلما شرعت صوب رحيل ما وإن اختلفت الشدة من مرة إلى أخرى ، فتنفت عيناي لتحتويا ما يراه البصر ، محطات مختلفة ، ليس في الأسماء فقط ، إنما في المظهر ، ربما بتأثير الحقول الممتدة الخضرة ، شاسعة الأفق ، لصبة الحد . بينها : بركة السبع ، طنطا ، كفر الزيات ، دمنهور ، كفر الدوار ، سيدي جابر ، محطة النهاية شاسعة ، تبدو السح وأرحب من محطة البداية ، سقف حديدي شاهق ، مكان منتظم الأطر ، له مهابة .

انتقلنا إلى قطار آخر ، العربات أضيق ، السرعة أبطأ ، لكن ثمة نسمات مفهافة وصلت إلينا عبر نوافذه ، قادمة من هناك ، من المدى . ليلة لم أعرف مثلها ، أحياناً فوق سطح بيتنا القديم ، أثناء وقوفي محدقاً إلى الأفق ، نسمات خريفية عذبة ، لكنها تنقطع أو تقوى فتثير تشعريرة ، تلك مغايرة .

ها هو ..

بالضبط ما بين محطة المنتزه والمعمورة ، فرجة تتخلل البيوت ، طريق ضيق يؤدي إليه ، ينحدر صوبه ،كل الطرق كما عرفت وعايشت فيما بعد تؤدي نحوه ، أو تمضي بحذائه ، غير أن لونه أينعني وجدد حضوري وثبتني على التوق اللامحدود ، والشوق الدائم إلى الضفاف غير البادية ، وألمح لي تموجه الأبدية ، خاصة اللون !

لحظة فارقة ، دافقة ، ورغم أنني لمحته على البعد لكن الصلة استؤنفت

على الفور ، قديمة لم أعرفها في وعيي ، وإن ظلت كامنة حتى أثارها رؤيته في ذلك النهار السكندري ومن خلال القطار .

درجة من الزُرقة العميقة ، أزرق يولد من مثله ، متصل بأفق يعلو مرتفعاً بصداه ، توجهت إليها ، ليس بالنظر ، ولكن بكل ما يمكنني إرساله أو تلقيه، وهذا وضع بدأته في تلك اللحظة ولزمته مراراً في أطوار أخرى ، لكن شرط تشوفه لا يكون إلا في مواجهة البحر ، أو فراغ ما ، أفق أطل عليه من نافذة ، شرفة على واد ، أو ذروة مرتفع جبلي ، أو أثناء تحليق علوي فوق البحر المحيط أو إحدى القارات الست ، عندئذ ألزمه يكتمل انفرادي وتوحدي ، لا يعادل ذلك إلا اللحظات التي تسبق نومي ، وأبلغ فيها أقصى توحد بالذات ، بي ، وهذا من طبيعة الإنسان وكل المخلوقات السامية ، فلا أحد يدلج إلى النوم بصحبة آخر . الأصل في الوجود الوحدة والعدم الذي ربما يؤدي إلى وجود آخر .

قبل تلك الطلة ، انفجار هذه المشاهدة . لم أر البحر من قبل ، سمعت عنه من أبي عندما تحدث عن أقاربنا الذين رحلوا إلى الإسكندرية ، أحياناً يعني بالبحر النيل . هكذا يطلق عليه أهلي في الجنوب ، البحر يعني هناك النهر خاصة في زمن الفيضان المعروفة بالدميرة ، وفيها كانت تحاصر جهينة الشهور الأربعة الصيفية ، كان الوصول إلى ديارنا في ربع حسام الدين لا يتم إلا بواسطة قارب ، في الحارة سمعت بسفر أسرة عم حسن المسحراتي للتصييف ، امرأته البيضاء ، الدلوعة ، تصغره ستاً ، هناك ترتدي المايوه وتنزل إلى البحر مثل بطلات فيلم السابحات الفاتنات الذي عرضته سينما الكواكب في الدراسة .

لا شيء يدل على البحر إلا الموج وتدافعه وتطمه اليابسة وزبده الأبيض والمدى ، لا السينما ولا اللوحة ولا الوصف مهما دق . هذه الزرقة كونية المصدر علقت بذهني ؛ ونزلت منه موقعاً مرجعياً ، لعلني أقبض في تدوين آخر عن البحر ، التفاصيل شتى والبلاغ خضم .

بلغنا المعسكر ، خيام منصوبة بترتيب وانضباط ، توزعنا عليها ، ثلاثة في كل منها ، لا يفصلنا عن البحر إلا رمال الشاطئ ، الناعمة ، الخصبة ، العتيقة ، مبان متناثرة تخص الصيادين ، مقاهي بسيطة مشرفة ، لم أجلس بها . لم أعرف بعد عادة التردد على المقاهي منفرداً ، لكنني بدأت التأمل وتسديد البصر ، لم أتعلم العوم ، ولم يكن لديّ لباس بحر يمكنني من النزول إليه وملامسة جسدي لمائه ؛ اكتفيت منه بالنظر ، وتعددت مثل تلك الفترة مرات نظري إليه ، ومواضع وقفاتي ولهذا تفصيل يطول .

ارتبط عندي البحر بالرحيل ، لا أقدم على دخول إحدى المركبات . في أي مكان أرحل إليه أو منه إلا وجرى عندي الشروع في رؤية البحر ، يداخلني يقين جسدي بمروري على بحر ، أو نزولي قرب شاطئ ما ، أو عبوري سفينة صغيرة تطل عليه ، ولا يخطر لي ذلك إلا وتمثل أمامي تلك الفجوة الزرقاء ، تماماً كما لاحت بادية لي من نافذة مؤدية ، أستعيدها حتى لو كنت ساعياً إلى قلب صحراء شاسعة نائية تماماً عن البحر المحيط . لكن يقيني هذا لا يلغي ثبات أمري ومؤداه ، أن ثمة بحر عند كل أفق ، وأي قصد بالغه يوماً .

***

نسبية

بعد شهور قليلة ركبت القطار مرة أخرى ولكن إلى الجنوب ، لأول مرة أولّي وجهي صوبه منفرداً ، بدون أهلي ، بصحبة زملاء جمعتني الدراسة بهم ، وكما تفرقنا أيام العطلة ستباعد بيننا الأيام حتى ليجيء يوم أجتهد في استعادة ملامحهم فلا أبلغها ، وأعتصر خزائن الذاكرة لأقف على أسمائهم فلا أجدها ، ها أنذا بالغه عند بدئي هذا التدوين ، فما أقرب وما أبعد ، ما أيسر وما أعسر ، حقاً .. إن الأمر شبيه برؤيا للموجودات من خلال نافذة قطار مسرع ، مكتمل الاندفاع ، يتطلع الراكب من النافذة فلا يمكنه رؤية الأرصفة المحاذية ، والمباني المطلة ، والأشجار المجاورة والمباني المشرفة، يعسر عليه قراءة لافتة عريضة تعلن عن اسم محطة تتجاوزها المركبات المشدود كل منها إلى الآخر ، لكن .. يمكن للنظر أن يستوعب المرئيات الأبعد ، الطرق المتصلة ، أو المدن في مجملها ، الحقول الممتدة ، وكلما نأت المسافة تباطأ الإفلات وأمكن للراكب التملي والنظر ، لكن التفاصيل لا محل لها ، ولا يمكن الإلمام بها .

أرى مساء تجمعنا بمدرسة العباسية الثانوية الصناعية ، نرتدي ملابس

الكشافة ، ننتظر الأستاذ لنتجه إلى محطة مصر ، ميعاد لم أعرفه من قبل ، لا يمت إلى المنقضي، ما أركن إليه وأتمنى ذلك الذي يتحرك في تمام الثامنة، إنه الآمن ، الهادئ ، الساعي ، المصبوح ، المسلم على المدن بحنو ، المصافح للأفق بمودة ، زعقته بشارة ، غير أنني أكتشف الآن بعد اثنين وأربعين حولاً أنني لم أركبه قط بعد أن انفردت ، لم أعرفه إلا بصحبة أسرتي ، لكنني عندما بدأت الرحيل فرداً لم أقصد إليه ليحويني ، ذلك أنني تقلبت ما بين مواقيت الليل والنهار ، لكنني لم أقترب ولم أشرع في الاتجاه إلى الثامنة ، عرفت أن آخر محطة يتوقف عندها الأقصر ، يبلغها في السادسة تقريباً ، لا يستأنف بعدها . خلال الأعوام التي تلت آخر سفرة لنا إلى جهينة سنة أربعة وخمسين ، ألممت بما لم أكن أعرف ، أدركت أن لكل قطار رقم ، ولكل مدى معين ، فواحد يتوقف في أسيوط ، وآخر الأقصر وثالث إلى أسوان ، وأن خطوط الجنوب كلها تنتهي بعد أسوان بمسافة يسيرة ، القطار محكوم بطريق حديدي من قضيبين يسعى فوقهما ، إنه لا يحيد ، ولا يمكنه التجاوز. وقد كنت في زمني الأول أراه مندفعاً بلا نهاية ، لا أحد يوقفه ، ولا مصد يمنعه ، ولكن مع شبوبي وبدء سعيي ألممت بغير ذلك .

ما اسم الأستاذ الذي رافقنا إلى الأقصر ؟

عتمة تحدق بي ، لا أعرف .

ما أسماء زملائي ؟

لا أقف إلا على محو ، فراغات سدى .

غير أنني مدرك للأمر في جملته ، بل أستعيد ما كنت عليه نضراً ، واضحاً كأنه جرى بالأمس أو اليوم ، حبوري بالاتجاه جنوباً ، وتيهي على

أغرانى بمعرفتى أسماء المحطات التى سيتوقف عندها مقداراً بدءاً من الجيزة وحتى طهطا ، أحفظها ليس بتأثير من تعاقب سفرى ، ولكن من حنين أبى وشوقه . كان يسند ظهره إلى الوسادة . ينظر إلى السقف ، يذكر بصوت مرتفع أسماء المحطات المؤدية إلى طهطا ، يحفظ أسماءها جميعاً ، وأحياناً يتوقف عند بعضها ليذكر صحبياً ، أو يحدثنا عن أحبابه المقيمين أو أولئك الذين رحلوا ، مثل محطة ديرمواس التى يقصدها عند سفره إلى جهينة ، يعبر النيل أمامها إلى قرية 'الحاج قنديل' ويمضى إلى حيث الباشجاويش أحمد حسين الذى أنقذه من الموت طفلاً وصار بمنزلة الأب له .

أحياناً ينغم أسماء المحطات وينتهى بالحنين إلى وابور الثانية عشر الشهير ، منه عرفت المحطات وصار لكل منها عندي إطار وملمح خاص لا أدري مصدره تحديداً : فملوى تختلف عن منفلوط ، وبني مزار مغايرة لصدفا أو ديروط ، أما الواسطى فلها السمة والرحابة ، منها تتفرع الخطوط إلى الفيوم وإلى داخل ورش الإصلاح الكبرى ، وكان إذا تعطل قطار أو انقلبت عربة نسمع من يقول إن الونش قادم من الواسطى .

رحلنا ليلاً ، لأول مرة أطّلع على الجنوب مستتراً بالليل والنجوم التى لم تكن تخفيها أضواء المجرة الباهتة ، أحياناً يتوقف القطار ما بين المدن ، أنظر خارج النافذة إلى الحشائش النابتة على جانبي القضبان بغير تهذيب ، ترى .. ماذا يكمن بينها ؟ وماذا بعد تجاوزها ؟ إلى أين تؤدى ؟ ما احتمالات هجوم مباغت ، مدمر ، مفاجئ ، استعدت حلقات مصورة كانت تنشر في الصفحة الأخيرة من الأخبار ، ثلاثة مربعات متجاورة ، داخل كل منها صورة تعبر عن السطور المكتوبة بأسفل ، على مدى أيام

تابعت توقف الأحداث وقفز المجرمين ذوى الشوارب الكثة إلى ما بين العربات ، فصلوا الأخيرة واشتباك المخبر السرى حسن معهم .

الليل عميق ، والتقدم حثيث ، باعث على الفضول ، لأول مرة أتجاوز طهطا ، تمكنت من قراءة 'جرجا' 'البلينا' ، 'قنا' ، "الأقصر" ، يبطئ من سرعته ، الخط مفرد ، والأولوية لقطارات الدرجة الأولى الفاخرة ، السريعة، الأقل أهمية يركن للأهم ، ربما ينتظر الركاب صابرين أو ضجرين ساعة أو أكثر ، ثم تمرق عربات المقتخر مثيرة للضجيج والغبار ، ما بين الأقصر وأسوان يتمهل القطار ، ربما تطول الركنة ، ينزل السائق ومساعدوه أحياناً لشراء بعض الأشياء من الأهالى ، بلح الصعيد ، أو الأسماك المملحة المحفوظة فى علب من الصفيح أو القفف المجدولة من خوص النخيل الملون، كذلك الأوعية الحاوية ، ينزل الركاب ، يفترشون التراب ، يخرجون عن قعدة العربة وزحمة المكان المغلق بعض الوقت ، بعضهم أمضى نهارين وليلتين . قادمين من الاسكندرية إلى أسوان ، مواصلين بعد ذلك إلى بلاد النوبة . إذ يلمحون السائق متجهاً إلى المقطورة السوداء التى تكتسب حضوراً ودبعاً فى تلك المسافات التى لا تنطلق خلالها بأقصى الطاقة ، تغرى المرء بلمسها ، فى لحظات يصعد الجميع ، وربما يكتشفون أن الوقت لم يحن بعد ، وأن انتظاراً جديداً يبدأ .

أثناء وقفة طائلة فى بلدة دراو ، حاورت شاباً يرتدى جلباباً وعمامة مرتفعة بيضاء ، ومعظم أبناء قبلي يبدأون الحوار بسؤال عن البلد . ثم يذكرون بعض الأسماء الغائبة عن الواقع أو عن العالم ، وربما لم يلتق السائل بمن يذكر اسمه مستفسراً عنه فى البلدة الأخرى ، لكن كل إنسان

يقرب بالغائب إلى الحاضر .

"من أين ؟"

"من جهينة"

قال متراجعاً إلى الخلف :

"آه .. من بحري .."

بحري ؟ أنا من بحري ؟

كيف ؟

لأول مرة أكتشف نسبية الأشياء ، فما هو قبلي عندي يمكن أن يكون بحري عند آخر ، وما هو أمامي بالنسبة للقطار يتحول إلى خلفي ، وما يقع في الشرق سرعان ما يصبح غرباً ، في كثير من المواضع التي انتهيت إليها وبلغتها من هذه الدنيا كنت أعيد اكتشاف هذا الأمر ، وأستعيد دائماً محطة دراو التي لم أتوقف بها إلا تلك المرة ، لم أنزلها ، ولم يتمهل أي قطار ركبته فيما بعد أمامها .

في ذلك السفر بلغنا أسوان ، كانت مدينة صغيرة ، هادئة ، ضيقة الشوارع ، منفى للموظفين المغضوب عليهم ، فيها رأيت أول عملة مغايرة، قروش سودانية يتداولها الناس ، وتمت على لقاح النهر للصخر ، وأبدية الخضور ، وسريان الموج فوق صخور الجنادل ، وعلقت عيناي بقبة أبي الهواء ، وتحسست رخام ضريح أغا خان المشرف ، المطل ، وأعجبت باختياره موقع رقدته الأبدية ، وبلغنا موقع إنشاء السد العالي ، في الطريق رأيت الرجال يمدون الخط الحديدي الذي سينقل المعدات إلى موقع العمل ، فلنكات خشبية مصفوفة بنظام معلوم على مسافات متقاربة ، قضبان

حديدية مفردة غير مصفوفة أو مثبتة .

موقع السد ينتظر دبيب البشر ، مرتفعات ومنخفضات من الصخور والرمال ، ستتغير وتتبدل معالم دامت ملايين الدورات حول الشمس ، عند منعرج النهر أشار من يصعب عليّ تذكر ملامحه الآن .

"هناك سيكون السد .."

نقط خيمة وحيدة منصوبة تحتها نموذج متقن لما سيكون عليه السد ، ومحطة الكهرباء ، وبحيرة ناصر التي ستمتد خلف السد أو أمامه ، لوحات محيطة توضح مراحل العمل ، رسوم بيانية ، أرقام تشير إلى الكميات التي ستستخدم ، أما سقف الخيمة فمنقوش عليه البروج الاثنى عشر .

صورة تتصدر مدخل الخيمة

جمال عبد الناصر في عز فتوته ، إلى جواره الملك محمد الخامس ورئيس عربي لا يمثل عندي الآن في ذاكرتي ، الثلاثة يضغطون زراً ليفجر أول عبوة ديناميت في الموقع الذي سيتم عنده تحويل النهر . إنها الضغطة الإشارة ، تمت قبل وصولنا بأربعة أيام لا غير .

إنه يناير

بقايا الاحتفال ، سكون ينبئ بما كان ، لا يدل على ما سيكون ، أثناء عودتنا راكبين عربة نصف نقل رأيت عمالاً منحنين بدأب ، بهدوء ، بحركات متوالية ، يمدون الخط الحديدي بعينين مغايرتين ، ثمة مرجعية أضيفت إلى ذلك المكان القصي ، النائي ، بدأ انفجاره .

***

وقفة

محطة ..

لا يمكنني تحديد موقعها ، وجه قبلي أم بحري ؟ ، حقول على الجانبين ، أعمدة التلغراف المحاذية ، سماء زرقاء صافية : هذا الأزرق الصافي الحُلمي ، رصيف يتسع لوقوف سريع مفتخر ، لكن البناء صغير ، مجرد مكتب داخل غرفة وحيدة جدرانها من طوب أحمر معتق ، نوافذها مستطيلة من خشب أخضر ، مغلقة باستمرار ، لا يعلم أحد آخر مرة فُتحت، لافتة رمادية ، حروف سوداء متآكلة : باهتة .

كافة المحطات تقع بمحاذاة الخطوط ، لو أقيمت بعيداً لما اكتسبت المعنى، فلابد من طريق للمحطة ، ولا بد من محطة للطريق ، كلاهما متمم للآخر، إذ لا يمكن للطريق أن يمضي إلى ما لا نهاية . فلا بد من وقفات ، والوقفة محطة . والمحطة إطار للحيز وتحديد للحظة . كل الأرصفة متساوية من بداية الخط إلى آخره ، لكن رغم التشابه في المظهر إلا أنها تختلف في الجوهر .

ثمة محطات رئيسية كبرى ، عندها تتلاقى الخطوط القادمة ، وتتفرع الذاهبة ، وإن كان الأمر نسبي دائماً ، فأحياناً تصبح الآتية مولية ، والماضية مستقبلة ، لكن ثمة إجماع لتيسير الأمر في الظاهر . على الطريق محطات رئيسية، أحياناً تتعين بوجود مدن كبرى أو مراكز مهمة، أو يحدث العكس، إذ يؤدي إنشاء محطة عند نقطة ما إلى وجود حياة بأكملها ونشوء مركز .

تلك المحطات المنسية رغم اكتمالها ، لماذا أنشئت أصلاً ؟ ولماذا لا تتوقف عندها القطارات ، حتى البطيء منها ، والبضاعة ، والناقلات الصهاريج ، ربما كانت ذات أهمية عند نشوئها ولكنها فقدت بسرعة مكانتها ، ربما تستعيدها يوماً ، لكن هذا مرتبط بظروف متشابكة ، متقاطعة، تماماً كمنطقة تلاقي الخطوط الآتية والذاهبة .

تمر القطارات بها مكتملة الطاقة . دائماً تهدئ سرعتها عند الاقتراب من المزلقانات والجسور ونقاط العبور واجتياز المدن العامرة ، لكن تلك المحطات المنسية لا يعبأ بها السائقون . إذا بحث الإنسان عنها في جداول الحركة والتشغيل فلن يجد لها ذكراً. يطلع حولها النبات العشوائي ، الهيش وذقن الباشا والمسك .

يظهر فوق أرصفتها غرباء ، عابرون : يجلس أحدهم القرفصاء أو يتمدد فوق الرصيف أو الدكة الخشبية إذا وُجدت ثم يمضي ، لا تبدو على أحدهم علامة انتظار أو سمة توقع : ربما تضع امرأة حملها أمامها . قفة من خوص ، أو بُقجة تنطوي على قماش وما لا يمكن استنتاجه أو طشت معدني يحوي جبناً أو فجلاً أو برسيم .

دائماً تبدو الأرصفة الخالية حتى لو توسّد جزءً منها أحد الضالين ، التائهين ، الشاردين ، أو الضاربين في الأرض ، لا يكون امتلاء الأرصفة إلا بقدوم المسافرين أو ذهابهم وما يتعلق بذلك ، كما لا يكتمل البناء إلا بإقامة البشر وسعيهم خلاله. وتوقف يمنح للمحطات والأرصفة المعنى، والعكس.. إذ تكتسب المركبات حيويتها وقيمتها من الوقفات قلَّت أو تعددت .

أذكر إحداها : أستحضر ملامحها ، جدران تتخللها نوافذ ، عريظلله سقف خشبي ، دكة واحدة ، أين ؟ لا أدري ، على أي طريق ؟ لا أدري ، لكن مجرد استعادتها يثير عندي رجفة خوف ، وخشية غامضة حتى لأتمنى زوالها الأتم ، رغم أنني لا أراها إلا بالمخيلة !

عرفت الوحدة القصوى في تلك المحطات المنسية ، توقفت عند بعضها منذ أن بدأت أسفاري وتعددت مرات ترحالي . ليس داخل مصر فقط ، إنما في كل بلد نزلته ، ما من خط حديدي ممتد إلا وتجد عليه محطة أو محطات خرجت من ذاكرة الناس والأماكن ، موجودة وغير موجودة .

***

تفريعات

للوجه القبلي الوضوح والتوالي المنتظم ، خط حديدي رئيسي يبدأ من محطة مصر وينتهي عند الشلال ، لا يتفرع منه إلا خطوط محدودة ، فمنها ما يبدأ من محطة "الواسطى" إلى الفيوم ، وتلك نقطة محورية ، ويعني بلوغها عند صعودنا جنوباً أن النأي عن القاهرة بدأ ، في العودة يعني عندي رؤية أرصفتها أن العاصمة دنت وأوان الوصول اقترب . "الواسطى" مؤدية إلى الفيوم ، توجد أيضاً بعض ورش السكك الحديدية ، قاطرات تنتظر الإصلاح ، أوناش الإنقاذ الثقيلة . وآخر خط فوقه العربات التي خرجت من الخدمة . يستمر الخط وحيداً منفرداً حتى نجع حمادي ، ثمة آخر فرعي يبدأ وينتهي في الواحات القصية كان يمر به قطار واحد في الأسبوع ، بطيء، متعب ، عرفته من وصف السجناء وبعض الركاب ، ثم وقفت على بقاياه بعد أن بطل العمل عليه وبه ، إلى أن طالعت خبراً حول تجهيزه من جديد على أن تعمل عليه ثلاث قاطرات اسبوعياً . ثم تفريعة أخرى عند كوم امبو ، تخص مصانع السكر . في رحلتنا الكشفية تجولنا في حقول القصب الكثيفة ، الممتدة ، وصلنا في أوان الحصاد ، اصفرت الأعواد التي

تمكث في الأرض سنة أو أكثر قليلاً ، عصير رائق : عذب ، لم أعرف حلاوة تماثله ، زراعات القصب أشد كثافة ، قال أحدهم إذا أطلقت رصاصة ببندقية فإنها لا تستمر أكثر من صفين أو ثلاثة على الأكثر ، الأعواد المتراصة المتجاورة صماء التكوين ، لذلك يقال إن الأمل ينعدم في إدراك مجرم فار إذا تأكد القوم من دخوله إلى القصب .

وسط تلك الكثافة يمتد خط حديدي ، فوجئت ، أقف عند نقطة يصعب تحديدها الآن ، ذلك أن ست وثلاثين سنة مضت ، انطوت : ما رأيته ، لم يعد قائماً أو موجوداً .

بدا مغايراً لكل ما عرفته ، عرباته مكشوفة ، صغيرة : أضيق ، لا تحمل إلا عيدان القصب ، جافة الشكل ، برتوية الداخل ؛ قاطرة سوداء أقل حجماً بكثير عن تلك التي عرفتها زمن طفولتي ، ذات المهابة والهدير ، قاطرة القصب تلك أنثوية ، منخفضة الارتفاع : مقعد السائق مكشوف ، مدخنتها مثل قمع السكر شكلاً ، كبيرة بالقياس إلى الجسم الاسطواني ، عجلاتها نحيلة . رأيت ما يشبه تكوينها في أفلام رعاة البقر ، وحلقات زورو التي كانت تعرضها سينما الكواكب على امتداد أسبوع .

هذا ما عرفته وعاينته من فروع الخط الحديدي الرئيسي ، إضافة إلى خط قصير يصل مدينة أسوان بمناجم الحديد ، شددت إليها الرحال في قيظ أغسطس سنة تسعة وستين ، زمن فتوتي وشروع أشواقي . بداية عملي في مهنة الصحافة عندما نويت الذهاب جنوباً في ذروة الصيف . إلى المناجم تحديداً ، قطار بطيء ، تغطي عرباته ومقاعده ذرات الحديد الحمراء ، أتطلع إلى العمال ، إلى ملامحهم راغباً بقولي بينهم .

لم أستطع حصر كافة فروع الدلتا ، أهم الخطوط ما يصل القاهرة بالاسكندرية ، إنه الأول في بر مصر ، أنشأه المهندس الانجليزي ستيفنسون مخترع السير بالطاقة البخارية بعد صدور إرادة سنية من الخديوي عباس حلمي الأول ، جرى ذلك بدءاً من سنة أربعة وخمسين وثمانمائة وألف ؛ اتخذت ترتيبات عديدة لتيسير إنشاء هذه المنفعة التي لم تعرفها إلا انجلترا ومصر في ذلك الحين ، حتى ليتحدث المؤرخون عن انبهار الخليفة العثماني عبد العزيز عندما زار مصر ، وشاهد القطار لأول مرة في حياته ، فعقب انتهاء زيارته للاسكندرية توجه إلى محطة السكك الحديدية ، حيث كان القطار الخديوي في انتظاره ، وكانت حاشيته تضم ابنه الأمير وأركان دولته ، فلما رأى المركبات أخذته الدهشة واستفسر عن تلك الأعجوبة .

بعد خط اسكندرية أنشئ خط السويس ، ثم امتدت القضبان باتجاه دمياط والزقازيق والدلنجات والمناشي ، تفرعت كما تنتشر الخطوط في ورقة شجر ، بل إنني أثناء أسفاري في الوجه البحري عبرت أو رأيت قضباناً ممتدة لا أعرف أين تبدأ وإلى أين تنتهي ؟ . غير أن ما يمثل عندي ذلك القطار المعروف بالفرنساوي عرفته أثناء أداء مهمتي الوظيفي كأخصائي سجاد ، وعندي منه شوارد وصور وملفات !

***

الفرنساوى

عرفت الأسفار منفرداً منذ بدء اشتغالى رساماً وأخصائياً للسجاد الشرقى ، بدأت سنة ثلاثة وستين ، بعد تخرجى بحوالى عام ، كان مقرى فى الدقى ، قرب جسر الجلاء ، حيث المركز الرئيسى للتعاون الإنتاجى ، مؤسسة مستحدثة فى ذلك الزمن العامر بالرؤى والأحلام ، كنت أشتم الزخارف التى ستغطى السجاد ، وبين حين والآخر أرحل لمتابعة تنفيذ تلك اللوحات ولتفقد الأحوال بالمصانع الصغيرة التابعة مباشرة للمؤسسة ، التحقت بها وأنا دون الثامنة عشرة لتخرجى صغير السن إذ حصلت على الدبلوم ولى من العمر ستة عشر عاماً وشهور قليلة ، بمجرد إتمامى المدة المؤدية إلى الثامنة عشر قدمت أوراقى وبدأت أسفارى ، وهذا أوان تعرفى على أنحاء مصر قبلى وبحرى ، مدن لم أرحل إليها من قبل ، وقرى نائية شرق النهر وغربه ، واحات الصحراء الغربية المترامية . لم تعد هناك جهة تثير فضولى لاستغلاقها علىّ ، عرفت الركوب من أرصفة محطة مصر جميعها ، وأيضاً من محطة كوبرى الليمون حيث بداية الخط المؤدى إلى السويس وإلى المرج والخانكة وشبين القناطر ، فى تلك الأيام كانت هذه

المحطات تثير الإحساس بالبعد ، فى المدرسة كان زميلنا سعيد يسكن عزبة النخل ، إذ نمضى إليه لزيارته أو لمذاكرة دروسنا معاً نعتبر أنفسنا على سفر ، كان يسكن بيتاً من طابقين تحيطه حديقة ، يطل على ترعة خضراء الضفتين ، والده يعمل بالسكك الحديدية ، تلك البيوت تتبع المصلحة الأميرية ، يسكنها المفتشون والمحصلون وسائقو القطارات والمساعدون المعروفون بالعطشجية ، مع الوقت تكاثفت المبانى ، وأصبح المرج ضمن نطاق القاهرة ، وانقطعت عن عزبة النخل ، وعن سعيد صاحبنا إلى أن قابلته مرة أول السبعينات مصادفة ، تصافحنا وتبادلنا المودة والعتاب لانقطاع كل منا عن الآخر ، كان رياضياً ، معنياً بنفسه ، شهماً ، فائض المودة ، قال إنه التحق بالمخابرات العامة ، ولم أشأ الاستفسار عن مزيد ، ثم مرت أعوام قبل أن يخبرنى شخص ما أنه يعمل فى حراسة المبنى الرئيسى ، لكننى لم التق به قط .

كان القطار الذى يصل كوبرى الليمون بعزبة النخل بطيئاً ، متواضعاً بالنسبة للوجه القبلى ، غير أن الفرنساوى كان مختلفاً تماماً ، اسمه الرسمى قطار الدلتا ، لكنه معروف بين الناس بالفرنساوى ، لماذا ؟ لا أعرف ، رغم أن الشركة التى أسسته انجليزية فى الأصل ، كانت قضبانه نحيلة ، المسافة بينها أضيق مما عهدت والفلنكات أرهف ، عرفت فيما بعد أن سائر الخطوط فى مصر من نوعين ، عادى ويبلغ عرض ما بين القضيبين أربعة أقدام وثمانية بوصات ونصف ، وضيق ، عرضه ثلاثة أقدام وست بوصات ، إلى القياس الثانى يمت ما رأيته فى حقول قصب السكر الجنوبية والفرنساوى ، كان يبدأ من مدينة المنصورة ويتجه إلى عدة أنحاء منها

البراري ، ودكرنس ، ودمياط ، ركبته إلى بلدة سلامون القماش حيث توجد وحدة لصناعة السجاد ، ريف مغاير لصعيدي ، الخضرة مطلقة ، التربة أخرى ، ألين ، أرطب ، عتيقة في البلل والارتواء ، لم أعرف زراعات الأرز المنتشرة عبر تلك المساحة الكلية ، تكاد تكون قاصرة على بحري عدا مساحة محدودة عاينتها قرب مدينة ملوي ، ما زال لوقع الأخضر النهاري المنبعث من زراعات الأرز صداه عندي ، لا أحتويه بنظري إلا ويلوح عندي تفاؤل مهما علقت الكدورات . ذلك أنها درجة من الخضرة البراقة ، الناصعة ، ذات المستوى الواحد ، فلا درجات ولا ظلال عبر ساعات النهار كلها . خضرة مشبوبة : متطلعة ، متمكنة ، وكما اعتبرت قطار الثامنة مرجعاً استعيده وأتخذه للمقارنة صار الأرز الأخضر على ضفتي الفرنساوي أصلاً لذلك اللون ، أسعى لرؤيته ، وأقيس عليه ما أراه في أي مكان بالعالم بلغته ، وللأخضر عندي منزلة ، لعلي أفصلها في دفتر الألوان إذا ما ساعدني الوقت وآزرتني القدرة .

عربات صغيرة كأنها قدت من صفيح ، مطلية بلون أحمر ترابي ، أحمر مترب ، مقاعد خشبية نحيلة ، غير أن هذا المتمهل العتيق الذي يتهكم القوم عليه زمن رؤيتي له لبطئه وكثرة أعطاله ، وشدة تداخله مع القوم في حياتهم اليومية ، لذلك هان أمره ، كلما كان القطار أسرع وأشد ضجيجاً وصخباً ويتبعه عدد أكبر من العربات بدا مرهوب الجانب ، منيعاً على ما عداه ، يخشاه الكافة حتى وإن لم يواجهوه مباشرة عند اضطرارهم الوقوف أمام المزلقانات حتى تمام الاجتياز أو تراجعهم بعض الشيء لوق الأرصفة لحظة دخوله المحطات أو عبورها بسرعة . صفارته الخافقة ترسم حدود المدن

ومدى أنغها الين فتثير وتقلّب وتستدعي ، هذا حال القطارات الجبارة القاطعة للمسافات الطوالي ، أما الصغير منها ، البطيء ، الذي يتوقف سائقه عند أي إشارة من عابر فإنه مادة لأحاديث الناس وتعليقاتهم المرحة وموضوع لتعاطفهم أيضاً ، هذا ما كان عليه أمر الفرنساوي .

عرفته مرات عند تنقلي من المنصورة إلى البلدان المتصلة بها . خاصة سلامون القماش ودكرنس ومنية النصر . غير أنه ارتبط عندي ببلدة الاقتراب من الأنثى ولذلك تفصيل ، حتى هذا الأوان لم أعرف المرأة إلا بالخيال وعبر ما تثيره القراءة . وصور الممثلات وعارضات الأزياء وسائر ما ينشر في المجلات المصورة ، حدث عند ركوبي من المنصورة قاصداً سلامون ان رأيت زحاماً جُلّه من فتيات المدرسة الثانوية . كن ناهضات ، فواحات بالعبير الأنثوي ، يتحامين في بعضهن متقاربات ، متحدثات ، متهامسات ، متطلعات إلى الحياة في نصوعها وانطلاقاتها ، ركبت بصعوبة ، ولم استرح لوقوفي بينهن فبدأت أتحرك لأصل إلى آخر العربة محدودة الاتساع واستند بظهري إلى جدارها المصمت بعيداً عنهن ، مستمتعاً بالنظر إليهن وتنسم عبير الإناث الخاص ، المنبعث من أعطافهن وسر تكوينهن واستداراتهن ونفور النهود واكتمالات الأرداف اللواعج ، يملن وينداحن مع اهتزازات العربات وتكاكؤها المفاجئ ، في المحطة التالية صعد ركاب آخرون ، رجال ، نساء ، فلاحات يحملن البرسيم الأخضر والجبن القريش في الأوعية ، اضطرت التلميذات إلى الانضغاط داخل العربة والتقهقر باتجاهي ، فوجئت بقوام فاره ممتلئ ، ضاج بالحيوية يلامسني ثم يندفع تجاهي فينم أمري .

الجدار خلفي والأنثى أمامي ، لم تكن أمامي بالضبط ، لكنها متوغلة في ، عذري أنها قادمة ولم أسع ، أشرعت حواسي كافة في إطار ذلك التواطؤ الجميل منها ، من الكافة ، تنسمتها ولم أكن بحاجة كي أدفع جسدي إلى جسدها ، إذ امتلأ نصفي الأسفل بفيض ردفيها حتى أدركت مفرقهما وانحناءاتهما ورخص ليونتهما القاسية فانقدت نيران حامية ، دافئة سرت من صلبي إليها ، أيدتنا العربة المتعبة المتهالكة بتمايلها واهتزازاتها وانكفاءاتها إلى الإمام التي يعلو معها صراخ بعض الفلاحات والطالبات ، واحدة منهن تطلعت ناحيتي ، ابتسمت ثم ولت مبتعلة بنظراتها ، ولم أصبأ ، ولم أنتبه ، إذ بلغت الهزهزات ذراها ، وكان جسدانا يتعرفان على بعضهما بمعزل عني وعنها ، يلوذ كل منهما بالآخر ودام ذلك حتى نزولها قبلي فأغمضت عيني وصرت إلى زخارف من الرغبة المتقدة ذلك أنني كنت في عنفواني وفيما تلى ذلك لم ينقطع عني حضورها وتناغمنا المستحيل وسعي إلى فتونها وإدراكها بالخيال ا حتى نزفت من أجلها جُلَّ صلبي ومبتغى ترائبي .

***

مطر

حتى الآن لا أعرف بالضبط كيف وجدت نفسي بمفردي في مواجهتها داخل مقصورة الدرجة الثانية المغلقة ، المحكمة ، بالتأكيد يوم شتوي ، رمادي ، غامق ، سماء غيومها دانية . مثقلة بزخات مطر جرت وأخرى بادية متوقعة . موضع ما على الخط الحديدي ، ما بين دمنهور والاسكندرية، إذ توشك الدلتا على انتهاء ، ويبدو حضور البحر في السماء ، في الأفق ، ويتكاثف النبات من شجر ومزروعات شتى قبل بلوغ الشاطئ الرملي المؤدي إلى الخضم .

لست متأكداً .. ربما الخط الحديدي بين المنصورة ودمياط ، وربما ما بين مدينة كفر الشيخ وبلطيم . المؤكد أن السماء شتوية ، والتوقيت قبل الظهيرة، وتواجدي داخل عربة الدرجة الثانية المقسمة إلى قمرات ، كل منها تحتوي على أريكتين عريضتين متواجهتين مكسوتين بالجلد الأخضر ، كل منها مقسمة بثلاثة مساند ، مجمل السعة ستة أشخاص ، أي يجلس ثلاثة في مواجهة ثلاثة ، المؤكد أيضاً أننا لم نكن بمفردنا منذ البداية، ثمة

أشخاص غادروا لسبب ما ، القطار يقف بعيداً عن المحطة ، وهذا يعني سبب لا أعلمه ، لا أعرف تفاصيله ، لكنه متصل بنزول المطر الغزير ، وأعطال الطريق المترتبة .

المقصورة باردة ، هادئة ، عقيمة من أي صوت ، في مواجهتي علقت لوحة فوتوغرافية لمعبد فرعوني من الأقصر : حتى ذلك الحين كانت عربات الدرجة الثانية نظيفة ، أنيقة ، مريحة ، هادئة الطابع ، مزينة باللوحات الفنية، والصور الملتقطة ، لمعالم ذائعة ، وآثار قائمة ، ومنذ أن بدأت أسفاري حق لي ركوب الدرجة الثانية العادية ، لكل وظيفة درجة ; ما زلت في البداية ، إذا ركبت وتمكنت من الثانية المكيفة لا بد من دفع الفرق ، ثلاثة مليمات لكل كيلو متر مربع . لكن لم يحدث هذا إلا نادراً ; ربما مرة أو مرتين خلال ست سنوات من عملي بالمؤسسة ، ذلك أن ما أتقاضاه مقابل اليوم الواحد كان قروشاً قليلة تفي بالكاد ، بالضبط ، أربعين قرشاً ، وباستمرار ذلك الزمان كانت تكفي للمبيت في فندق متواضع وطعام يسير ، إلى أين أقصد عبر الرحلة في هذا التوقيت ؟ لا أدري ، ما من أثر الآن ، كل ما أراه بوضوح انفرادنا .

في البداية لم أصدق ، كأني أكتشف وجودها للمرة الأولى مع أنها ماثلة أمامي ، نظرت إليها من قبل فلم تلفت نظري إلا بجلوسها إلى جوار النافذة وشبوبها لرؤية ما يبدو من الخارج ، بل إن ما تركته عندي من أثر لم يكن مريحاً ، ملامحها عادية ، مظهرها في مجمله متنافر ، أقرب إلى النشوز ولا أقول بالقبح ، فلا توجد أنثى قبيحة في العالم ، إنما يوجد إنسان منفر ، ربما يكون من هذا الجنس أو ذاك . قمت واقفاً ، فتحت الباب ،

مشيت عبر الممر الضيق من أوله إلى آخره ; لم أجد أي إنسان ، لا رجل أو امرأة ; نظرت خارج العربة من نافذة الباب ، لم ألمح أي بشر يسعى ; عربات هامدة واقفة هنا وهناك بدون ركاب ، لا ترتبط بقاطرة ، حدقت البصر ; لا أحد ، الغيوم الثقال تضاعف من الخلاء والوحدة ، أنثني إلى المقصورة ، أغلق الباب ورائي ، كما كان بالضبط . أعود إلى مكاني في مواجهتها ، كأنها لم تشعر بي ، لم تلحظ ذهابي وعودتي ، تتطلع صوب نقطة ما .

أسدد البصر ، منشباً نظراتي في ملامحها . كيف لم ألحظها ؟ كيف لم أنتبه إلى سمرتها الناعمة : عينيها الواسعتين ، شعرها الغزير ، إلى تحولها الحاض على الضم والإيواء ؟ يتقد داخلي ، تتسارع أنفاسي المتسقة مع زمني الغض ، الغفي ، على مهل تحيد إليّ ، أومئ مبتسماً ، داعياً ، تائقاً ; تنفرج شفتاها : تتضاجع نظراتنا ، لا تنصرف عني ، خلو العربة وذلك الفراغ المنذر بالمطر والبرد والدافع إلى الانزواء بعيداً عن مسارات العاصفة، شجعني هذا كله ، حرضني على خلع كافة ما يمنع ويعوق .

تراجعت متقدمة نحوي ، انزوت بجسدها إلى الوراء قليلاً ضاغطة الأريكة الوثيرة ، متطلعة بعينين مسددتين وشفتين منفرجتين قليلاً ; وكان ما تبديه الدهشة والمجاوبة والتشجيع .

سرى الدفء عبر أوصالي وتجاوزني إليها ، تلاطمنا ، ولحظة تعلقها محذرة أن يرانا أحد كانت تخمش جلد صدري ، ركزنا فأوجزنا وبلغنا ما نقطعه في أيام خلال لحيظات زاعقة ، فائضة عن الحاجة ، نازة بالرغبة في الاتحاد بين اثنين من النوع الإنساني لم يعرف أي منهما الآخر قبل الانفراد

وتفجر السعي والتوق المهلك المؤدي إلى الاحتراق حتى التردد والجمود .

أعود إلى التطلع ممتناً ، راضياً ، متهدماً ، مشبعاً برائحتها وظلّها ، تنظر إليّ تسترق خجلة ولم ينتبه كل منا إلى حركة القطار الوئيدة والتي لم نعرف بالضبط متى بدأت ، غير أننا لم نتبادل كلمة واحدة حتى نزولها قبل بلوغي الجهة التي أقصدها ؛ غير أن هذا ليس أغرب مما عاينته في الوجه القبلي ، وبالتحديد في المنيا .

***

منفى

لعلها المرة الأولى التي أفيض بالدمع بعد تحرك قطار السابعة والنصف ، رفرفة ملامح أبي وبزوغ شجوه وبحة صوته

"خد بالك من نفسك .."

كان يرتدي قميصاً أبيض وبنطلوناً أبيض ، كلاهما يمتان في الأصل إلى ضابط شرطة كبير من بلدتنا جهينة ، كان يشتغل بعض الملابس من هذا أو ذاك لنفسه هو ؛ لكنه ثار مرة وكاد يحط حمولة الثقال في مواجهة موظف بالقسم الذي عمل فيه لأنه قدم إليه ثياباً للأولاد غير أنه تماسك واعتذر بلباقة مؤكداً أن أبناءه لا يرتدون إلا كل جديد ، وهذا حق ، والأمر في شرح ذلك يطول ، لكنني أقول إن كافة ما عاناه حرص على تجنيبنا له وإقصائنا عنه ، ورغم أن كل منا لا يبدي ما عنده للآخرين من الأسرة إلا نادراً ؛ كان حريصاً عندما بدأت أسفاري أن يصحبني إلى المحطة وكأنه لم يستوثق بعد من قدرتي على السعي بمفردي ، ولكن هذا الرحيل مغاير لكل ما سبقه . ذلك أنني مضطر ، مجبر ، متجه إلى منفاي ؛ لم أقض في أي

سفر إلا مدة محدودة لم تتجاوز خمسة أيام ، تكن الأمر اختلف ذلك الصباح : لم أعرف ما ينتظرني ، ولا كيف سأدبر أحوالي براتبي الذي لم يتجاوز اثني عشر جنيهاً ، كنت أساهم بثمانية في ميزانية الأسرة التي بدأت أحوالها تتضعضع ، لارتفاع الأسعار بمقاييس الوقت وزيادة المهام ، ورهن الوالد لآخر قيراط من أرضه التي ورثها وكاد يقضي بسببها في ظنونه ، وتفصيل هذا كله مدون في كتاب التجليات .

أما عن النفي فلا بد من شرح يسير لأسبابه ، ذلك أنني في تلك الحقبة كنت متقد الجذوة ، أفيض بالأحلام الكبيرة ، بدءاً من تغيير العالم إلى الأفضل ، حتى تحقيق المساواة بين البشر ، وتأمين كل إنسان يسعى من الجوع ، وإقصاء أنواع الخوف ، والانتصار لقيم الحق والأمانة والخير وكل ما هو جميل ، والله لم أحد طوال عمري عن ذلك ، لكن العون شحب ، والأكدار تراكمت ، والوهن طالني لذلك أضطر الآن إلى الصمت عن كثير ، مما يؤدي إلى شدة التحر داخلي ، وهذا ضار ، معجل بأمري .

حدث أن اكتشفت تلاعباً في صفقات جرت بين المؤسسة وتجار القطاع الخاص من أهل السجاد والأبسطة . وكانت الصحف تنشر أخباراً عديدة عن السرقات في القطاع العام ، وبدء تدخل جهات استثنائية في التقصي والتحري ، أبرزها الشرطة العسكرية . وكان ذلك يعني تزايد نفوذ المشير عبد الحكيم عامر والقيادة العسكرية ، كنت أهاب جهتهم ، ولا أعرف طريقاً مؤدياً إليها ، لكنني أبلغت بما عرفته صاحباً كريماً ، ورجلاً فاضلاً ، ساعدني في إيجاد العمل الذي التحقت به واسمه أيمن عز الدين ، كان وثيق القرب من جمال عبد الناصر وظل وفياً له حتى زمن تدويني هذا ولم

يتبق بعد إلا ثلاثة أعوام على نهاية هذا القرن ، تسلم مني الأدلة والقرائن ومرت شهور ، ثم بدأ عمل الشرطة العسكرية ، والنيابة التي اتخذت لها مقراً في جناح ملحق بقصر عابدين ، وفيه تعرفت بشاب صلب العزيمة ، متين البنية ، ناصع الآراء ، اسمه حسن صيام ، كان وكيل النيابة المسئول ، تحدثنا عن لصوص المال العام وعن ضرورة حماية أموال الشعب ، كنت منفعلاً ، مبهوراً بما يجري ، هذا تطبيق لما أعتقده وأطوي الصدر عليه ، صرت نشطاً في الفحص والتقصي ، والمشاركة في لجان الجرد والتحقيق وذات صباح كنت أجتاز مدخل مبنى المؤسسة صوب المصعد ، وهذا المبنى له قبول عندي ، من ناحية لذاته وفراغاته وخفة حضوره ، ومن جهة لما يحيطه من شوارع هادئة مظللة بالأشجار التي لا تثمر إلا زهراً ، وكنت أكثر من التجوال الهادئ وأحن إلى المجهول الخفي ، قال لي موظف الاستعلامات إن حسن بك يطلبني .

حسن بك هو المدير العام ، إنه الشخصية التالية لرئيس مجلس الإدارة سيد بك ، كان مكتبه في المبنى المواجه ، مضيت إليه متحفزاً ، مضمراً التصدي رغم الفارق الوظيفي الفاصل بيننا .

كان هادئاً ، مبتسماً ، ولم يكف عن مخاطبتي بـ"يابني" . قال إنه يقدر حماسي وفورة شبابي ، لكنه يسدي إليّ بنصيحة مجرب خبير ، كل هذه الضجة ستطوى ولن يدفع الثمن إلا أمثالي ، لذلك يطلب مني ألا أكون ملكياً أكثر من الملك .

تساءلت : ماذا يعني ذلك ؟

قال إنه أفضى إليّ بما صرح به لوجه الله .

قلت إن ما سمعته محاولة للتأثير عليّ وإنني سأنقل صورة كاملة لما قاله إلى النيابة ، لاحظت ارتجافة رمشه ، كان يقلب قلماً بين أصابعه ، قال :

"كنت أظنك أذكى من ذلك"

أصغى ضابط الشرطة العسكرية مبتسماً ، هز رأسه ، طلب من أحد جنوده أن يحضر حسن بك إلى هنا ، أن يذهب بالدراجة البخارية ، وأن يُركبه خلفه ، هو البك الذي لم يعتد مثل ذلك ، لا يركب إلا عربة ملكه يدفع راتب سائقها من جيبه الخاص : ينحدر من عائلة ثرية ، قديمة .

عندما رأيته بدا أصفر الوجه ، غاضباً لكنه كظم غيظه واضطرابه ، قال بهدوء :

"ممكن أعرف لماذا جئت بالضبط ؟"

عندئذ طلب مني الضابط أن أنتظر خارج الحجرة ، إنما أطلعني فقط على حاله المضطرب ، رأى في ذلك الكفاية حتى يستعرض قوته ويبث الثقة عندي ، مرت أيام معدودات لم أنقطع خلالها عن إبداء الهمة . حتى فوجئت صباح ذلك اليوم بالحاج مصطفى وهو موظف قديم قارب على التقاعد وكان عضواً في اللجنة الفنية للفحص ، كان يقف منتظراً أمام مقر الشرطة العسكرية ، قال :

"التحقيقات أوقفت .."

"كيف .."

"هذا ما جرى .."

كل ما بدأ انتهى فجأة ، لا يعرف أحد من أصدر التعليمات العلوية ، أو ما مصير الجهد المكثف الذي تم ؟ توقعت الأذى ، خاصة أن الملامح التي طالعتها كلها متوقعة ، متنظرة ، لم يستمر الأمر طويلاً ، بعد أسبوع من تجنبي وتحاشيّ رد التحية من قبيل البعض ، صدر قرار إداري من رئيس المؤسسة يقضي بنقلي إلى محافظة المنيا بصعيد مصر لأكون مشرفاً على وحدات صناعة السجاد الموجودة بسمالوط وملوي ، ومنشأة بديني وزاوية سلطان شرق النيل ، على أن يكون مقري مدينة المنيا ، وأن يتم التنفيذ خلال ثلاثة أيام .

ذلك ما أدى بي إلى الجلوس في تلك العربة من موعد السابعة والنصف المستحدث ، لا يقف إلا بالمدن الرئيسية فقط ، عواصم المحافظات من القاهرة إلى أسوان ، يقطع المسافة كلها في ستة عشر ساعة ، عرباته فسيحة، نظيفة : مقاعد مصفوفة على قسمين يفصلهما ممر ، لا يمكن ركوبه إلا بالحجز مقدماً ، لا يوجد به واقف .

لحظات اجتياز كوبري امبابة الحديدي ، تذكرت اللهب في الماء ، وقطار الثامنة الصباحي الذي سيتبعنا ، وملامح أبي المترقرقة تأثراً ، الشجية ، يتخللها حزنه الأبدي ، بداية مشي بجوار النافذة ، ثم أفسح ما بين الخطاء لوحت من النافذة وصحبتي ظله وتأثرت لانحنائه الأسيان ، غاب عني ، تراجع مبتعداً كأيام سفرنا معاً صحبة وتطلعي إليه مبهوراً إذ يتحدث بود إلى مفتش القطار الذي يتجاوز عن علم دفعه قيمة تذكرة من أجلي ، هذه المرة كنت وحيداً ، مضطراً ، مجبوراً على السفر ، والإقامة بمفردي في

منطقة لم أعرفها إلا عابراً ، ماذا ينتظرني وإلى متى تطول تلك المدة .

نزلت المحطة في الحادية عشر والنصف ، ومنذ تلك اللحظات بدأت علاقة مغايرة بالمواقيت .

***

مواعيد

واحد وثلاثون سنة تفصل ما بين تدويني هذا وتلك الأيام ، وعبر الزمن ومحطاته المتعددة توارت لحظات وبقيت أخرى ، ثمة صور ناصعة ماثلة ، وأخرى اجتهد لاستعادتها ، اختفت تماماً ، وما هذا إلا فناء تدريجي مؤدي، لا أعرف لماذا تندثر هذه اللحظة وتتوالى أخرى بكافة تفاصيلها ، أي مثيرات تحرك ، وأي قوانين خفية تقصي وتقرب ؟ لكن المؤكد أن يومي الأول هذا من أصعب ما مررت به ، ومن أثقل ما عانيته ، فيه تحددت صلتي بأمور عديدة ، منها العصر والمغرب ، والموسيقى ، والنخيل ، والنهر والجبل، وأيام الأسبوع التي أعيدت صياغتها عندي ، وساعات صيام رمضان ، والشوارع والنواصي ، والنار والرماد ، وما يفنى ، وما يبقى ، وتفسير هذا كله مبثوث ، مستتر ، ظاهر ، وهذا ما سأبذل الجهد لتفسيره إن تلميحاً أو تصريحاً .

اجتزت المدينة راكباً عربة يجرها جواد بني اللون ، وحيد ، إلى ميدان الصهريج قبلي البلد ، بناء حديث ، في الطابق الأول منه الجمعية التعاونية ،

رجوت العامل الذي اتخذ من المطبخ مقراً لإعداد الشاي والقهوة أن أضع حقيبتي عنده حتى انتهاء مقابلتي مع المدير .

كنت أعرف بعض الموظفين من خلال مرات ترددي السابقة ، إذ جئت للتفتيش على الوحدات التي سأشرف عليها منذ تسلمي عملي ، بالطبع قدومي الآن مغاير للمرات السابقة ، الموظف القادم من القاهرة للتفتيش على عمل ما تحيطه أهمية الآتي من المركز أيا كان مستواه ، يحظى بالقبول والترحيب ، تماماً مثل الأسفار ، العربات لا تتغير ، والقاطرات ذاتها ، لكن تلك الساعية من القاهرة إلى الجنوب لها زهوة وبريق مصاحب أو صادر عن العيون المرتقبة وهذا حال مغاير تماماً لما يصاحب القطارات الآتية من الجنوب بضجيجها وركابها المتعبين وأحمالهم مع أنها عين الأثقال ، في هذه المرة أجيء إلى الجمعية لأصبح موظفاً تابعاً لمن جئت قبل ذلك لتفحص أوراقهم ودفاترهم .

غاب عني اسم المدير الآن ، كان رجلاً أنيقاً ، هادئاً ، دمثاً ، أبدى مودة وترحيباً ، وقال إنه تحدث إلى استراحة الري ، قبلي البلد ، هادئة ، مريحة ، حجز غرفة لمدة أسبوعين بإيجار رمزي قدره عشرة قروش في اليوم الواحد، بعد انتهاء الأسبوعين ينبغي أن أغادر ، يمكنني على أي حال العثور على حجرة مناسبة ، لا توجد أزمة إسكان حادة في المدينة ، ثم إن الناس هنا طيبون ويمكنهم المعاونة ، تممت بكل ما يلزم من إجراءات ضرورية مثل توقيع إقرار تسلم العمل ، والاتفاق مع المهندس المسئول عن الوحدات الإنتاجية على جدول للمرور المنتظم بحيث تتحقق المتابعة ، ثم حانت اللحظة التي يجب أن أمضي فيها إلى الاستراحة .

عبرت المزلقان الجنوبي للسكك الحديدية ، إنه الأول بعد خروج القطارات من المحطة إلى قبلي أو قبل دخولها ، تتشابك عنده القضبان ، إذ يتحقق انفراد الخطين بعد مسافة من المحطات الكبرى ، ومحطة المنيا رئيسية، مرتفعة البناء ، لا بد من صعود سلم مرتفع ، وعبور جسر حديدي يؤدي إلى الأرصفة عبر سلالم معدنية منصوبة ، ثابتة ، ومن الرصيف يمكن مشاهدة منشآت ومخازن وعربات واقفة ، ومركبات تنتظر الإصلاح .

تنفصل الخطوط بين ناحيتين ، المدينة المحاذية للنهر شرقاً ، الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، والخلاء المزروع حتى حدود الصحراء غرباً ، الاستراحة جهة الغرب ، مطلة مباشرة على ترعة الإبراهيمية ، تجاوز مسار السكة الحديدية حتى أسيوط جنوباً .

كانت القطارات تمر بمرأى إذا تطلعت ، وعلى مسمع إذا رقدت ، خلاء مبثوث فيه النخيل وأشجار النبق والجميز والتوت ، المبنى من الخشب ، شيده مفتشو الري الإنجليز ، قائم لوحده ، منفرد في الخلاء ، مع اكتمال الغروب ، ينعزل تماماً ، للوصول إليه لا بد من قطع مسافة موحشة ، معتمة، قال الحارس الصعيدي الجهم الذي لم يبد ترحيباً إن الذئاب تظهر أحياناً، أما الكلاب الضالة والثعالب فخطرها ماثل ، لكن ما يخشى الجميع منه الضباع التي يظهر بعضها أحياناً ، وكثيراً ما تتجه إلى المقابر القريبة لنبشها ، وربما تظهر للماشي المنفرد فتدور حوله ، مرة ذات اليمين ومرة من شمال ، حتى إذا وقع به دوار وكبا ينقض عليه متمكناً منه ، مقدماً على لحس مواضع حساسة تتجمع عندها الأعصاب ، يتفكك الإنسان ، يستسلم تماماً للوحش ، حتى ليتمدد أمامه في الوضع الأمثل لانتظار النهش .

عبد المقصود الحارس قابلني بجفاء ، إنه طويل ، غليظ العنق ، يبدو كأنه مغمض العينين ، لم أفهم عدوانيته البادية ، ربما يضيق بالنزلاء ، هل يعطلون بإقامتهم شيئاً ما يجري هنا ؟

لا أدري

هل يستخدم الاستراحة لأغراض تخصه ؟

لا يمكنني الجزم

في يومي الأول كنت وحيداً تماماً ، في الرابعة تقريباً وقف عبد المقصود عند مدخل الباب ، قال بجفاء إنه سينصرف الآن ، ينصحني ألا أفكر في الخروج .

أن أبقى إلى اليوم التالي ، وألا أفتح لأي شخص ، قال إن المطاريد يتجولون في الناحية وهم أخطر من الوحوش الضالة .

نصح أم محاولة لبث الرعب ؟

كنت على وعي بعناصر عزلتي وانفصالي ، لم يبدأ الأمر بوصولي إلى المبنى المعزول ، شبه المهجور ، إنما جرى تمهيد منذ أن تقرر نقلي القسري ، أصعب ما واجهته خلعي من أسرتي التي لم أتخلف تناولي الوجبات الثلاث على المائدة التي تجمعنا إلا خلال سفري المحدود ، إنها المرة الأولى التي أخرج فيها إلى غربة لا أعرف مداها ، ولا أدري عن نهايتها شيئاً ، بل إنني لا أعرف ما يمكن أن يحدث لي هنا ، كيف ستمضي أيامي ؟ كيف سأدبر أموري بحيث أستمر في مساعدة الوالد الذي بلغت أحواله درجة صعبة من العسر ، ما زال أشقائي في المدارس وتكاليف الحياة في ازدياد مضطرد ،

وما وراءه من أرض محدودة على وشك النفاد ، إما بيعاً أو رهناً .

أستعيد حيرته البادية وشقاءه المكامن فأوشك على الدمع تفريجاً لتلك المكمة التي تأخذ بمسنري وتحيط بأنفاسي ، لماذا لم أخاطبه بما أشعر به تجاهه ؟ لماذا نعجز عن التلفظ بالقول الجميل ، اعتدنا تبادل العواطف بالنظر والصمت البليغ الفياض حتى ليجري الحوار بيني وبين أمي فنقول بالصمت ما لا نتقن الإفصاح عنه بالكلام .

صرت إلى ناحية ، وهم في أخرى ، هذا أوان الانفراد ، مفتتح وحدتي وبدء استعدادي لما جرى والتفاتي إلى ما حدث ، منذ ذلك الحين شرعت في بحثي وتنقيبي ، داخلي ، عندي ، صرت أستعيد ما كان مني وحولي بعد أن أمضيت ما انقضى في التطلع إلى ما سيكون ، ما سيجيء .

لأول مرة يطول انتظاري للقطار إلى أمد غير معلوم ، في كافة أسفاري السابقة كنت لا أقف على الرصيف إلا وقتاً محدوداً بالدقائق وإذا طال فلا يتجاوز نصف ساعة ، لا أنزل بلداً إلا وأحاط علماً بالمواعيد الآيبة وأختار منها ما يناسب مهمي ، لكنني الآن لا أعرف متى أركب عائداً إلى البيت ، يقضي قرار نقلي أن تكون المنيا محل إقامة ، ولكنني رافض لهذا ، عازم أمري على تدبير الحال بحيث أعود إلى أهلي ، إلى مقري ، مهما طالت أيامي هنا فليست إلا لحيظات عندي لا بد من انقضائها ، من وضع حد لها ، حتى وإن طالت ، ما أتمناه ألا يدوم ذلك .

متى أركب القطار بلا رجعة إلى هذه الاستراحة ، إلى تلك المدينة الهادئة ، التي تحول بيني وبينها ، ثمة صد خفي ، ليس أبرزه جفوة

عبد المقصود ، إنما شيء ما في حضور الشوارع ، خواء النواحي ، محدودية الميادين ، جهلي بالساعين وصعوبة التواصل مع أهلها الذين اعتادوا قضاء معظم أوقاتهم داخل بيوتهم : ليست وحشة الاستراحة بأقسى مما يستقر داخلي من خواء وشجى واغتراب عن كافة ما يحيط بي ، لذلك لم يداهمني خوف أو خشية عندما صرت وحيداً تماماً داخل المبنى المنفرد مثلي في هذا الخلاء الفج ، توحدت بالوحدة ، أطلت الوقفة والنظر إلى الترعة ومياهها الهادئة المترقرقة . والخط الحديدي المستقر فوق أرض مرتفعة قليلاً تضبطها شدات الفلنكات ، واصطفاف أعمدة البرق .

لست ساعياً الآن ولا منتظراً ، للراكب حالات فهو إما واقف على الرصيف أو مستقر داخل القطار ، لكنه في شتى الأحوال ساع منذ خروجه من أهله ، إنني متطلع ، متشوق ، وهذا جديد عليّ ، أجهل موعد إيابي ، مكان مطل على الخط ، مشرف عليه ، تماماً مثل المحطات الصغيرة ، الوحيدة ، التي تأملتها طويلاً ، وفكرت في بعضها ، وتأكدت من عدم إدراجها على قوائم المحطات ، حتى بالنسبة للقطارات القشاشة التي لا تدع رصيفاً إلا وتقف عليه ، يكتمل الليل حولي ، أصغي إلى الصمت ، أغمض عيني متمنياً ، تواقاً إلى حركة ما تطوي المسافات طياً .

***

سفر في السفر

ما بين ثباتي وانطلاق المواعيد إلى قبلي وإلى بحري تفجرت ينابيع أساي ، لم أتفق إلى أحد ، ولم أقص أنبائي على مسمع ، تعرفت إلى إمكانية الحوار مع الذات ، والنظر إلى الداخل ، والأنس بالنفس ، واللوذ بالأنا ، أمعنت التطلع ، أطل على نقطة تبطئ عندها القطارات القادمة إلى المحطة أو تلك المقلعة منها ، لذلك معظمها لا تكتمل سرعته هنا ، عدا مفرد ، واحد معروف لمن له صلة أيا كانت بالسكك الحديدية ، إنه المخصص للسياح : يقوم من القاهرة في التاسعة إلا الثلث مساء ، لا يتوقف إلا مرة واحدة في أسيوط ثم يواصل إلى الأقصر ، يصل إليها في الصباح ، مع شروق الشمس ، عرباته للنوم ، عدا واحدة للأكل ، وأخرى للدرجة الأولى الممتازة ، معظم ركابه أجانب .

لا يستغرق مروره إلا بضع ثوان ، يمر أمامي ، شريط متصل من الضوء ، تختفي المسافات بين العربات والنوافذ ، تصعب الإحاطة به إذا ركزت البصر بالمواجهة . أحيد قليلاً إلى اليمين أو إلى اليسار ، لكنه يفلت من

دائرة النظر ، يولي منلمجاً بالليل : لا يخلف إلا صدى وانقاد رغبة وحيرة وتضاعف وعيي بتقييدي داخل هذه الاستراحة الموحشة ، وعدوانية عبد المقصود حتى بعد انصرافه ، بعد ثلاثة أيام المت وأتقنت بسائر المواقيت الساعية إلى الاتجاهين ، ليس الركاب فقط ، إنما البضاعة أيضاً ، لم تهتم من قبل بمتابعتها والنظر إليها ، لم نعرف عنها إلا تعدد عرباتها وتشابهها وخلوها من البشر عدا بعض المجندين الذين يستقلون فوقها ، أو يندسون داخل الفارغ منها ، كنت أظن أنها تمضي بدون ترتيب ، بلا مواعيد، لكن من متابعتي الدءوب أدركت أنها منضبطة بمواقيت تماماً كقطارات الركاب ، كنت أنتظر منذ عودتي قرب العصر ، حتى بعد نزول المهندس عبد المسيح في الغرفة المجاورة ، كان منقولاً أيضاً مثلي ولكن من وزارة الصناعة إلى الإدارة المحلية ، وكان يعود بعد الغروب ليبدأ طقوساً دينية أحترمها لكنني لم أكن أعرفها : يقرأ من الإنجيل ، يتنقل بين أركان الصالة ، وعند فراغه يرسم علامة الصليب في الفراغ ويؤكد لي انه بذلك يطرد الأرواح الشريرة ثم يتجه إلى غرفته التي يقيم فيها مؤقتاً مثلي: أنثني لأتابع حركة القطارات، ما بين مرورها أقرأ وأصغي إلى أغاني الحنين ، وترتبط تلك الحقبة بأغنيتين لمحمد عبد الوهاب ، لا أقوى على سماعهما حتى النهاية لرهافتهما الأولى جبل التوباد وذروتها في قول ناظم كلماتها أحمد شوقي :

قد يهون العمر إلا ساعة

وقد تهون الأرض إلا موضعا

والثانية ، يا ترى يا نسمة حتقولي أيه ؟ ، لعل مطلع موسيقاها من أشد مثيرات الشوق عندي ، تماماً كقومة القطار ، أو دخله إلى رصيف

الوصول، لا أسمعها إلا وألم بوقفتي وحيداً في غرفتي ، مطلاً على الترعة والقضبان الممتدة ، وأستعيد خفقة قلبي عند تخيلي أو تمثلي لمحبوبة كانت تقيم في الحارة ، لم أتحدث إليها ، ولم أبادلها الحوار قط ، لكن مجرد ظهورها يجلجلني ويهدهد دخائلي ، وعرفت مثل ذلك كثيراً ، وهذا أيضاً من الوحدة ، غير أن وقوفي أو تمادي إلى النافذة أراني ما لم أدركه من قبل ، ما لم أطلع عليه ، ومن ذلك وحدة القطارات وسائر ما يمت إليها .

القضبان تمتد متجاورة ، لكنها لا تلتقي أبداً ، لا تتماس وإذا وقع ذلك كانت النهاية ، بل إن بروزاً خفيفاً أو تجاوزاً يسيراً للمعدن يقود إلى الكارثة، كذلك القطارات ، ينطلق كل منها وحيداً تماماً ، مكتمل الفرادة ، حتى العربات ، رغم تتابعها وترابطها فإن كل منها قائمة بذاتها ، وليس حضور البشر داخلها إلا عَرَضٍ مؤقت ، سرعان ما تُقفر ، ما حرك أساي مباشرة أعمدة التلغراف ، وحدة كل عمود بادية رغم تقاربهم وامتداد أسلاك البرق بما تحوي من أسرار سارية ، لكن .. كل منهم بمفرده تماماً . لهم التبعية ، إنهم ملحقين بالسكة ، متطلعين من ثباتهم إلى القطارات المارقة ، الساعية .

لي مواجهتي ثلاثة ، تمتد صلة خفية بيني وبينهم ، أبتسم لهم أحياناً أو أومئ ، أو أناديهم بغير نطق عندما أتقدمهم في الصباح الباكر والضباب كثيف متصاعد من النبات ومياه الترعة الجارية .

اتصالي بالجماد غير جديد عليّ ، عند تمددي طفلاً صغيراً ابن خمسة أو ستة في الغرفة التي أقمنا فيها زمناً بعطفة باجنيد ، حارة درب الطبلاوي ، كنت أرقب السقف المحمول على أعمدة خشبية متجاورة ، لكل عمود

عندي اسم ، لا بد أن ثمة أحاديث تجري بينهم ، خاصة بعد إيغالنا في النوم، لا بد أنهم يتزاورون ، يدركهم الملل من تلك الصلبة التي تبدو لا نهائية أم أن حياة خفية لا ندركها ، حكى أبي عن سيدنا سليمان الذي أطاعه الجن وتحكم في الرياح ؛ أنه مات واقفاً ، وكان مستنداً على عصاه ، ولنهاية هيبته ، وقوة بسطته ، أطاعته الجن ميتاً كما لبوا أوامره حياً ، وكانت حشرة الأرضة تعمل عملها في هدوء وبعيداً عن الأبصار تنخر العصا المصنوعة من الخشب ، وبعد تسعين عاماً حانت اللحظة ، جرى الانكسار واكتشف المردة من الجن أنهم لم يطيعوا إلا شبحاً ، لم يمتثلوا إلا لصورة لم تكن تنطق ولا ترى وأن ما تحكم فيهم وهم .

فوق السطح المشرف على أفق القاهرة الدائري أحاور ظلي ، أحاول أن أسبقه ، أدور حوله ، أخاطبه ، أسمعه بجيبني ، لكل موجود من حجارة وخشب ومياه متدفقة وغمام سابح ونجوم ثابتات لغة ورموز وإشارة ، ليست المرئيات كلها إلا كائنات لها حواس مشابهة وقدرات وأحوال ، الأمر اختلف مع تقدم الزمن ، لكن بقي يقين غامض بوجود حيوات من أنواع أخرى لما نراه من عناصر ، في الصباح الباكر كنت ألفظ تحية الصباح بوعي ، وأحياناً متمتماً بشفتي ، متجهاً إلى الأعمدة الثلاثة : أحطتهم بمودتي وأسبغت عليهم من فيضي .

يمكن القول إن إدراكي لوحدتي بدأ في تلك الحجرة ، كنت أسعى طاوياً عناصرها ولا أعي ، استمدت أوقات انفرادي في المدرسة ، استغراقي في القراءة ، انصرافي ، ابتعادي عن الأقران ، توقد خيالاتي ، جموح تصوراتي وركوني إليها .

صرت أتمدد في عمق الليل ، منبتاً ؛ مقطوع الصلات ، متوحداً بالصمت ، بالنأي ، أرى موضعي بعيون محلقة ، ذلك التخيل ، والبيت العتيق المشيد للعابرين ، للراحلين مهما امتدت إقامتهم ، في خضم الخلاء الخاوي أرقد ملموماً ، منطوياً على ذاتي ، محتمياً بي ، لائذاً بنفسي .

في ذلك المقر وعيت لأول مرة استعادة تراثي، ذلك أن مسافة انقضت، رأيت فيها ما رأيت وعاينت ما عاينت، صحيح أنني ما زلت في المقتبل بحساب متوسطات الأعمار والمقادير الإنسانية، لكن ما عرفته كثيف وهذا ما أورثني دائماً تجاوزاً لما أنا عليه بالفعل حتى صرت نائياً لحد ما تصورته يوماً من تجاوز، وفاق ما لقيته كافة ما نهايات له ولعلي مفصل ذلك يوماً؛ هنا عرفت أن لي رصيداً يمكنني استرجاعه وتأمله والاجتهاد في النفاذ إلى بعضه .

في تلك الليالي أيقنت بعد جلاء العناصر ، أنني جئت إلى هذا الوجود وحيداً ، وأنني سأمضي فرداً منقطعاً مهما تعددت الصحبة ، واتصلت الحميمية ، وكل ما تؤججه الرفقة إنما لواذ وقتي ، مرهون بمدة ، له ابتداء وله انتهاء شأن كافة المواقيت .

تمضي القطارات هادرة ، مختالة ، لكنها على القضبان وحيدة ، في الخلاء منطلقة بمفردها مهما ثقلت الحمول ، لا تدوم الصلة إلا مقدار لقاء العجلات بالقضبان عند اكتمال السرعة ، لا تخلف الضجة إلا صمت المعدن المصلوب ، المثبت ، المشدود بالفلنكات ، عاكسة الميسور من الضوء الشحيح عند تلك النقطة أو هذه المسافة ، ويظل مصدر النور مجهولاً .

***

قتل

رأيت من يقتل .

حتى نزولي مدينة المنيا كان الموت قصياً إلى حد ما : فموت جدتي لم يخلف عندي إلا حزناً عابراً ، وافتقاداً مبهماً ، لكنني تطلعت باستمرار كأن أبي وأمي وكل من يمت إليّ باق أبداً ، أما القتل فلم أعرفه إلا من قراءة الصحف ، ولم تحتفظ ذاكرتي إلا برؤية قتيل ومنتحر ، أما القتيل فكان في جهينة ، عندما أصغى كل من يقيم حول الرحبة الفسيحة إلى صرخة وحيدة، ثاقبة ، مختصرة ، دالة ، خرجنا من الباب ، خالي وخلفه بخطوات جدتي وأمي وامرأة خالي ، وسط الرحبة حمار يقف مطرقاً حتى يكاد فمه أن يلمس الأرض ، أذناه مرتخيتان ، فوقه جثمان ضيف الله .

"طخّوه في الْمَلَقَه"

بقع حمراء فوق الجلباب عند الصدر ، كان رأسه المتدلي بلا غطاء ولكن الشال البني اللون حول رقبته ، جسده منحنياً ، مرتخياً : لم يعلق المنظر بالذاكرة ، إنما شغلت الصرخة الإطار والمقدمة ، صرخة واحدة لا

غير، لا أعرف مصدرها حتى الآن ، لم تطلق إلا لتقمع . لا يجوز العويل على قتيل لم يثأر أهله له : ما سمعته أشد نفاذاً مما رأيته ، وهذه الصرخة ترددت عبر سنوات تالية ، وفي أقاصي بعيدة ، تغيب عني وتختفي ثم تدوي فجأة ، غريبة ، فاجعة ، تماماً كما أصغيت إليها أول مرة .

أما المنتحر فكان ذلك ظهيرة يوم عطلة : كنت قادماً من المنيل بصحبة زميلي حسن ، متجهين لنعبر الكوبري فوق النيل الصغير المحاذي لمبنى قصر العيني القديم . كان الشارع خالياً ، لا أستعيد المنطقة كلها إلا أذكرها خاوية تماماً إلا من هذا الشاب الذي وقف يخلع ثيابه بهدوء عميق ، تماماً عند منتصف الجسر ، رتب القميص والبنطلون ، وضع الحذاء بعد أن أدخل فيه الجورب ، كأنه داخل حجرة في بيته ، عندما أصبح مرتدياً السروال فقط، تلفت حوله ، تطلع ناحيتنا لكنه لم يبد عليه أي رد فعل ، كأنه لم يلحظنا ، ثم اعتلى السور وقفز في الفراغ ، سقط جسده منحنياً إلى الأمام قليلاً . الظن الأول أنه قصد السباحة ، لكن شكل نزوله إلى الماء ، وملامحه، وتلك الثياب ، رحنا ندقق النظر في المياه التي تميل لونها إلى خضرة داكنة مترقرقة ، ما من أثر ..

لا يمكنني حتى زمن تدويني هذا نسيان ذلك رغم أنني عاينت في أحوال تالية مشاهد مهولة ولحظات حادة فيما قدر لي أن أشهده من حروب وهذا ما أثنى أن أعكف على تسجيله يوماً إذا سمح تردد أنفاسي وسريان الروح في الأوصال .

ما رأيته تلك الليلة بقي ومثل ، بدأ الأمر بسماعي خطى عند الناحية المحاذية للترعة ، مضى عليّ تسعة أيام حفظت خلالها أصوات المكان رغم

تعدد مصادرها وشسوع الناحية وقصر المدة . ما أصغيت إليه طارئ غامض ، قمت حذراً متجهاً إلى النافذة ، عتمة مكتملة ، لم أغلق المصراعين الخارجيين ، فقط النافذة الداخلية يليها حاجز من السلك قديم يمنع الناموس وستارة خفيفة . أزحتها قليلاً وتطلعت .

ثلاثة ، أو أربعة ، يصعب التحديد ، كانوا يحملون لفافة ضخمة موثقة بحبال ؛ مع التدقيق أيقنت أن الملفوف آدمي ، رجل أو امرأة ؟ . لا أدري ، غير أن الحركة البادية ، الجلية عبر العتمة ضارية ، متوثبة نحو الإفلات من حلم وشيك . انثلاثات وبزوغات حادة تتخللها سكنات . أراهم بوضوح ، يثقلون اللفافة بأحجار مربعة ، ثقيلة باذلين جهداً لقمع الانتفاضات المتوالية، في النهاية تحركوا ، خطوات قليلة باتجاه الترعة ، جهد هائل لإخراس تلك الحياة المجهولة التي تلوى الآن ، سقوط الجسد المقموع ، المشدود ، لم تستمر اليقظة إلا ثوان ، عند استدارتهم كانوا في مواجهتي تماماً ، لو رفع أحدهم بصره إلى أعلى ، لو أوتي القدرة لأمكنه رؤيتي ، رغم اختفائهم إلا أنني كنت أثق أنهم على مقربة ، كامنون مترقبين ، أما الجثمان فهنا ، عند تلك النقطة بالتحديد مثقل ، باق إلى وقت لا أعلمه عندما تتحلل الحبال ، وينشأ وضع يستسلم معه للتيار ، ما تبقى عندي كتمان أنفاسي واختناقي الموازي ، وهذا حال عجيب لا أرغب استعادته واحيد عن تمثله ، وبعد ما يقرب من ثلاثين عاماً ألح عليّ ، وتخلصت منه إلى حد ما بعد تدويني ما جرى وخلال ذلك رأيت ما لم أعاينه وقت وقوع الأمر ، من ذلك كفي وجمودي حتى عند مرور قطارات الليل .

***

خـطى

انقضت فترتي بالاستراحة كما مرت مددٌ عديدة مثلها تفاوتت بين الطول والقصر ، ورغم ضيقي بأيامها الخمسة عشر ، وكابوسية الخلاء المحيط بها ، وفردانية النخلات ؛ وجهامة عبد المقصود الذي لم يخف كراهيته عند انصرافي حتى أنه تعمد إغلاق الباب الخارجي بعنف مبالغ فيه، إلا أنني استعدت أوقاتي فيها بحنين لما لاقيته في الشهر التالي ، إذ أقمت في فندق متواضع مطل بواجهته على شارع الحسيني الرئيسي في المدينة ، ومدخله من طريق جانبي ، غرفة مشتركة بسريرين ، أغمضت عيني ورحت في السبات وجيراني لا أعرفهم ؛ بل يجيء بعضهم في ساعة متأخرة وينصرفون في ساعة مبكرة . شخير بعضهم قض مضجعي ، والحذر من آخرين ، لمحت بعضهم يدس أسلحة نارية أو بيضاء تحت الوسادة ، جافاني الوسن وأنهكني ترقب وحذر لم أعرف مثله في وحشة الاستراحة ، كثيراً ما جرى تعارف وحوارات مقتضبة أو طويلة ، كنت أصغي جيداً ولا أفيض إلا نادراً .

فندق لم أعرف مثله ، كافة غرفه مفتوحة ، الصالة بها مراتب مصفوفة ، متجاورة ، وعند المدخل مكتب عتيق علقت فوقه الأسعار ، منها أدركت نظامه ، ثمة أجرة لقضاء ليلة كاملة في غرفة بسريرين أو ثلاثة أو أربعة ، أجرة أقل لمن ينام نهاراً بدءاً من الثامنة صباحاً وحتى الثالثة مساء ، وهؤلاء يتمددون في نفس المواضع التي ينام بها النزلاء الدائمون ، سعر أرخص لمن يأوي فترة ما بين الظهر والعصر للراحة .

نزلاء يجيئون في هدوء ويمضون صامتين ، متفاهمين ، لا أحد يحتج ، لم أسمع مشاجرة ، ولم يقع استفزاز ، فندق شبيه بمحطة ضرورية على طريق لا يعرف أحد أين يؤدي ، كل من يعبرها مضطر ، اللائحة واضحة ، كاشفة ، صريحة ، تطلع كل قادم على محدودية المكان وتواضعه ، مختومة بالنسر المقدس حكومياً . إلا أنني لم أكن راضياً : أغفو بصعوبة : أضطر إلى الانتظار مدة في الصباح أمام دورة المياه : زميل في الجمعية مغترب مثلي ، مقيم في غرفة فوق سطح بناية قبلي المدينة ؛ قرب سوق الخميس . كان هادئاً . قامته منحنية إلى الأمام عند وقوفه وقعاده ، أبيض شعر الرأس والحاجبين ، ممن يطلقون عليهم "أعداء الشمس" . قال إن إقامتي في مثل هذا الفندق مقلقة ولا تليق ، بعد يومين أفضى إليّ بعثوره على حجرة صغيرة إيجارها زهيد ، نصف جنيه في الشهر : صحيح أنها ضيقة لكنها أفضل ، فثمة باب مفتاحه في جيبي ، أغلقه ليلاً .

في بداية الأسبوع التالي كنت متمدداً فيها ، أمضي الليلة الأولى في مكان يخصني ، لم تكن حجرة ، إنما جحراً ، سقفها مائل ، ليس إلا سلم البيت الواصل بين الفناء والطابق الأول المؤدي إلى الثاني والثالث ، أقام

المالك جداراً من خشب - يتخلله باب لا بد من انحنائي عند عبوره - حجب به الفراغ الواقع تحت السلم ، أما دورة المياه فمشتركة مع ثلاث غرف تطل أبوابها حول الفناء ، يسكن أحدها شرطي سري ، أب لسبعة أبناء ، لا يكفون عن الضجيج ، كان فراشي مرتبة قديمة اشتراها صاحبي من متجر أثاث مستعمل قريب ، قال إنه يدرّس اللغة العربية لابنة صاحبة البيت . إنها في الإعدادية لكنها فائرة ، ناضجة ، ورائحة جسلها تصيبه بالدوار ، هي التي بدأت عندما تعمدت مس يده بأصابعها تحت المنضدة ، ثم جاست يده في ثناياها بحذر ، توقف ليسأل :

"ألم يحدث شيء عندك ؟"

" لا .. "

لم أحدثه عن ضنكي لرطوبة المكان وانعدام الفتحات ، وصلابة الأرض وبرودتها ، وحشرات الليل ودبيب الفئران التي أخشاها أكثر مما أخاف الثعابين ، كنت أنتهي من عملي في الثالثة وأمضي إلى النيل ، أقعد مواجهاً الجبل والنخيل ، مستوعباً الهدوء النظيف الساجي ، أشم الهواء النقي ، ثم تجيء اللحظة التي يلجئني عندما إرهاقي إلى ذلك الجحر ، يبدأ حنيني إلى القطارات ، إلى دخولها المهيب ، توقفها البطيء حركة الركاب من وإلى الأرصفة ، أتمنى أن أهتدي إلى مكان قريب من المحطة ، من أعمدة التلغراف . أستعيد المركبات النائية ، الساعية بي زمن طفولتي ، تلك المارة أمامي . أرصدها عبر نافذة الاستراحة .

شيئاً فشيئاً بدأت اعتاد الرقد الضيق ، فيه عرفت طوراً مغايراً لوحدتي ،

وأيقنت من قدرة الإنسان اللامحدودة على التكيف بالظروف ، وتطويعه النفسي لتقبلها ، خاصة إذا استحالت المقارنة ، حتى الأحلام لها أفق ومدى مؤطر بما حصله المرء وما عاينه وما وقف عليه .

عرفت السكان من خطاهم ، يطلعون وينزلون فوقي . احتكاك أقدامهم، عارية أو ملموسة في الأحذية ، جلدية أو خشبية ، يمضي فوق حضوري .

خطى سريعة ، واثقة ، أرى من خلالها زهوة الشباب والقدرة على النفار ، لكنها عند العودة عصراً تبدو متثاقلة . إيقاعات للذهاب عند الكل نشطة ، عكس خطى الإياب ، تتخللها أخرى حذرة ، أصغيت إليها عندما طال رقادي يوماً أو بعض يوم ، لارتباطي بموعد قطار إلى سمالوط أو ملوي بعد العاشرة ، خطى متلصصة ، وئيدة ، تاجر الفاكهة القريب وتردده على امرأة ساعي البريد الذي يغادر في السابعة صباحاً .

خطى ليلية هامسة، صاعدة عبر الفناء، أخرى قادمة من الطابق الثاني، رغم الحرص على لمس الدرج بأطراف الأصابع، إلا أنني كنت أحملق إلى الجحر في العتمة راصداً ما يجري فوقي مباشرة، واعياً بالخفخفات والحركة شبه الراقصة حتى أوان الافتراق الحذر. في الأيام التالية أرى طالب المعهد التجاري نازلاً، تتبادل تحية الصباح، وفي لحظة أخرى ألمح ابتسام ابنة الشرطي السري تنشر الغسيل تشب على أطراف أصابعها لتطال الحبل فينحسر الجلباب عن ربلتي الساقين اللتين تقفان فوق صدري ليلاً وتنفرجان

عرفت الخطى قبل أن ألتقي بأصحابها ، إيقاعات أخرى لم أستدل على مصادرها ، خاصة تلك المفاجئة التي توقظني ليلاً ، كثيرة ، متعاقبة ، لكنني

لا أعرف سبب قدومها أو انصرافها المتعجل ، كما أن تداخل الأصوات يعطل أي تفسير .

خطى تعاطفت معها ، ساعية ، راجية ، متعبة ، باذلة .

خطى ضقت بها . خبطها الدرج بصلف .

خطى خشيتها . تلك الليلية . المجهولة .

أتململ ، أصغي ، أحاول تلقي الإشارات الدالة ، لكنني .. عبثاً .

كنت أخرج خافضاً عيني ، مطرقاً برأسي ، إنني الأعزب الوحيد والعيون ترصدني ، رغم أن الخطى المتلصصة ليلاً أو نهاراً من تلك الأسرة أو هذه ، ثمة تواطؤ خفي ، الحيوات مكشوفة ، لكن ثمة تغاضي ، وبقيت خشيتي ، ونزوعي إلى المفارقة .

ذات صباح أمضيت بصحبة مدير الجمعية وقتاً ، بدا متبسطاً ، وراغباً في الحديث ، كان دمثاً ، مهذباً ، متحفظاً ، ولا أدري كيف انتهى الحديث بموافقته على إقامتي في سمالوط ، أن أتخذ من مركز الوحدة هناك مقراً وأمر من خلاله على الوحدات في ملوي ومنشأة بديني وزاوية سلطان شرق النهر ، وأن أتقدم إليه تقريراً أسبوعياً ، كل يوم خميس .

هكذا .. انتقلت من الجحر إلى قصر مطل على المسار الحديدي الصاعد جنوباً النازل شمالاً .

***

وحدة

يقع قصر آل الشريعي قبلي مدينة سمالوط . لم أعرفها من قبل إلا كنقطة يقف قطار الثامنة عليها في سفرنا إلى الجنوب باعتبارها مركزاً ، ويتجاوزها المقتخر السريع الذي نعود به ولا يتوقف إلا عند عواصم المحافظات . لم تكن تعني لي شيئاً محدداً : لا ملامح خاصة لها ، فقط بعض البيوت الفسيحة القديمة ، عكس مطاى التي تبدو بيوتها حديثة ، وبني مزار التي تشي بمساحة أكبر ، لسمالوط مركز تجاري يقع بالقرب من المحطة وتمتد مستطيلة بحذاء ترعة الإبراهيمية تماماً مثل معظم مدن الصعيد التي تحددت معالمها باستطالة الوادي، وتدفق النهر من الجنوب إلى الشمال.

تبدو مزارع خصبة ، ثم أفق فسيح يمتد إلى الغرب ، أما قصر آل الشريعي فيعتبر خارج المدينة وقتئذ ، مرتفع حوله سور حجري عريض ، يتخلله باب حديدي قوي ، يليه مدخل مؤدي إلى درج من رخام ، أعمدة مستديرة رومانية التيجان تحمل الشرفة العريضة .

إلى يمين المدخل غرفة فسيحة ، مرتفعة السقف ، تطل على الطريق ، منها يمكن رؤية الترعة والقطارات وأعمدة التلغراف ، على الفور اتخذتها

مقراً رغم أن أحدها مستطيلة ، مطلة على الحقول الممتدة من الناحية الغربية، التالية لجدار الحديقة مباشرة ، غرف الطابق الأول المجاورة لمكتبي تتعصب بها أنوال السجاد اليدوي ، صبية صغار ، فتيات تدور أعمارهن بين الثانية عشر والخامسة عشر ، للوحدة مشرف فني اسمه النعماني من الفيوم، وأمين مخزن من بني مزار ، يجيء يومياً بالقطار ويرجع إلى بيته عند العصر: عارف بالمدينة وناسها وعائلاتها ؛ ومطلع على خباياها وأسرار الموظفين من ذوي السطوة القادمين من مصر ، مثل وكيل النيابة وقاضي المحكمة الابتدائية ، وضباط الشرطة ، إنهم يقيمون في عمارة من المساكن الجديدة قبلي البلدة ، تلي قصر آل الشريعي بمسافة قصيرة ، وكلهم عزاب .

ثمة طابق تحتي، كان يستخدم أصلاً كمخزن وسجن، ويقال إن القصر كان يضم مشنقة لتنفيذ الأحكام فوراً، تماماً مثل قصر آل لملوم الأكبر والأفسح، القائم على مقربة من مدينة مغاغة، آخر حد محافظة المنيا إلى بحري .

القصر كبير ، فسيح ، مهجور ؛ بعض حجراته مغلقة منذ أن هجره مُلاّكُه الأصليون بعد قيام الثورة ولا أحد يعرف محتوياتها ؛ غرفة واحدة مختومة بالشمع الأحمر .

حتى الثالثة عصراً تسري الحياة في البناء ، أصوات الصبية ، دقات المشط الحديدي الذي يثبت العقد واللحمة ، تكتكات المقص عند تسوية الوبر ، أصوات أعرفها منذ لحظة دخولي ورشة مدرسة العباسية الثانوية الصناعية وبدء دراستي واشتغالي بهذا الفن .

حرص الكل على راحتي ، فتحي الساعي المقيم في قرية قريبة اسمها منشأة بديني ، وما زال يرتدي الطاقية والجلباب ، قام بكنس الغرفة وتنظيف

أركانها وزوايا الجدران من بيوت العنكبوت العالق ، ورتب السجاد الذي افترشه بعد انتهاء العمل لأتمدد فوقه ، لم يكن لديّ أي أثاث عدا مكتب وثلاثة مقاعد وصوان من خشب ، اشتريت بطانيتين وملاءة من فرع عمر أفندي ، كذلك وسادة من ترزي بلدي ، وقبل قدوم أي شخص كنت أطوي هذا كله وأنقله داخل غرفة صغيرة إلى يسار الداخل يبدو أنها كانت مرقباً أمامياً وموقع حراسة .

كنت مبتهجاً بالضوء والفراغات والبيت الفسيح والتعرف إلى أشخاص جدد لم ألتق بهم من قبل ؛ لكن بمجرد انصرافهم وبقائي وحيداً تماماً تدركني وحدة قاسية أثقل وطأة من أوقات الاستراحة ، ذلك أنني كنت هناك مجبراً على البقاء وحيداً ؛ العمران بعيد ولا بد من اجتياز المزلقان ، كنت أتداخل في بعضي ، لكن القصر المهجور هنا على أطراف المدينة ، مطل مباشرة على الطريق الرئيسي في الصعيد كله ، ما بين مقرى وأكثر الشوارع زحاماً ، ما يمكن اعتباره المركز أو القلب ، مسيرة سبع دقائق أو ثمانية ، رصيف مبلط وسور أنيق محاذ للترعة يبدأ بعد حوالي مائة متر ، يحدد أيضاً زحام المدينة ، كنت أتعرف على ملامحها ببطء ، على مهل ، معظم الناس هنا لا يفارقون بيوتهم بعد انتهاء أعمالهم ، المقاهي نادرة ، اثنان فقط على الطريق يتوقف عندهما سائقو النقل وعربات الأجرة قديمة الطراز العاملة بين سمالوط والمنيا بالنفر ، أو الأكثر عتاقة الواصلة بين القرى النائية والمركز .

الخط الحديدي يحدد المساحات والأماكن بصرامة ووضوح، على الناحية الأخرى حقول تنبثق منها أشجار النخيل ، وتبدو مجموعة من المساكن

الشعبية الحديثة، ذلك النمط المتشابه الذي ظهر بعد الثورة في مدينة العمال ناحية امبابة ، وفي ضاحية حلوان ، ثم انتشر في أماكن أخرى، وإذا كانت تلك الشقق رخيصة وتسكنها الأسر الكادحة في العاصمة؛ فإنها تعد في الريف سكناً متميزاً لا يحصل عليه إلا الموظفون والعاملون في أجهزة الدولة.

يمكنني مغادرة القصر عصر كل يوم والمشي والتجول في شوارع المدينة ؛ لكن .. إلى أين ؟

لا أعرف أي شخص هنا ، وإقامة الصلات ليست سهلة ، البيوت أبوابها موصدة في مواجهة الغرباء ، التحفظ هنا شديد، والمدينة يمكن استيعابها خلال جولة سريعة ، إنها واجهة فقط، مستطيلة، نحيلة العرض، شوارعها سرعان ما تنتهي إلى الحقول: سينما وحيدة لا تعمل إلا صيفاً، ذكرتني واجهتها بسينما الفتح في الجمالية التي تحولت إلى مخزن للخشب.

مدينة صامتة . الجفاء للغريب . حتى الصلات العابرة صعبة ، لذلك بدت لي أشد جهامة من أيام الاستراحة ، أينما وليت الوجه أرى ملامح عبد المقصود ، لاحظ محمد أمين المخزن انقباضي ، ألمحت إليه ، ضحك غامزاً بعينه ..

"لا تتعجل .. المدينة الموحشة في نظرك لها أسرارها"

"الأسرار كثيرة .."

قال مقهقهاً

"عندما تكتشفها تذكرني .."

***

نفثات

لمحتهن . في الموعد ذاته كل يوم .

ثلاث ، سِرْبٌ أنثوي يسد الباب ، قمريات ناضجات ، مرتويات ، ساعيات ، يجئن من ناحية المحطة متجهات إلى قبلي ، لا بد أن أسرهن تقيم في المساكن الجديدة ، يرتدين زي المرحلة الثانوية الرمادي ، يحتضن حقائبهن في أوضاع شتى وتنقل بين الفتيات بعد ظهور لبنى عبد العزيز الممثلة تمضي متمهلة إلى جوار عبد الحليم حافظ في فيلم الوسادة الخالية .

الرابعة عصراً ، أكون وحيداً تماماً ، بعد انصراف الجميع وتناولي غدائي البسيط . بدلاً من متابعتهن عبر النافذة خرجت إلى الطريق ، إلى الرصيف المطل على الترعة ، أقف عاقداً يدي أمام صدري ، متطلعاً إلى الجهة المضادة، لاحظت وقوف عامل يرتدي حلة صفراء ويمسك سماعة هاتف ملفوف حولها أسلاك .

يَلُحن ، بمجرد ظهورهن يتبدل حضور كل شيء ، يرق الهواء ، تبتسم الموجودات ، ويسري عندي هديل خفي : أنسها لحظات ظهور علية ونادية وسعاد وثريا وسناء هؤلاء اللواتي ترتحت صورهن في فؤادي ورطبن

خفق قلبي ، أبطأت من دقاته وأسرعت ولم يحطن بخبر ، ذلك أنني اكتفيت بما جرى عندي وحُشُه داخلي ، حجبته عن الظهور وهذا حالي في تلك الحقبة .

تمليت منهن ، من ملامحهن ، من تضاريسهن ، خاصة الوسطى ، كانت أطولهن قامة ، بشرتها قمحية ، شعرها أسود غزير ، لها إقبال وإدبار عظيمان ، لا يتجاوز قدومها إلا ذهابها ، من هنا صدرها ، ومن هناك ظهرها وردفاها الآشمَّان ، المحركان ، الباعثان على الترقي .

كنت أنتظر هفهفة تلك اللحيظة المارقة ، عند محاذاتي لهن ، عند مرورهن أمامي مباشرة ، ولضيق الرصيف كنت أتنسم عبيرهن الأنثوي الضاج ، وأحياناً كنت أغمض عيني وأزدرد روائحهن العطرية ، البث السري لأجسادهن القوية ، المزدهرة .

أدركت الرابطة بين ظهورهن والقطار ، يصل إلى المحطة في الرابعة إلا خمس دقائق ، قادم من بحري ، لا بد أنهن يدرسن في ثانوية بني مزار ، أو مغاغة ، يمر بضجيجه متهادياً ورائي قبل وصولهن بدقيقة أو دقيقتين ، قطار بطيء ، عرباته كلها للدرجة الثالثة باستثناء واحدة مخصصة للدرجة الثانية، كان يئن عند مروره وتصرّ عجلاته ، إن السرعة والطاقة تحددان هيئته ، فالمروق الجبار لا يتوقف إلا عند الحواضر الكبرى ، أما تلك العتيقة المتلكئة، البطيئة فإنها تبدو متعبة ، ضئيلة الشأن ، لم أعرف شيئاً عن ذلك المتجه من بحري إلى قبلي إلا أنه يأتي بهؤلاء الحسناوات واللواتي لا يفارقنني بعد اختفائهن ، إذ أستعيد تأودهن وتقاربهن من بعضهن عند الدنو مني ، لا بد أن وقوفي الصامت ، الضاج ، المتوتر ، أصبح ملحوظاً عندهن ، وربما مثار بعض تعليقاتهن ، عند تمددي . في تلك المرحلة الفاصلة بين اليقظة والنوم ،

استدعيهن بشدة ، بقوة ، أنفرد بكل منهن ، أتمهل مأخوذاً بزهو اللدائهن وشبوب حلماتهن وطَلّع أفخاذهن المتيئ ، الحاضر ، يتبخر قطر دمي إذ تشتد السخونة وتلح بي الخيرة وأنا وحيد في مداري . غير أنني أتوق إلى اليوم التالي ، أتقنت اختزال التوق والشوق ، الرغبة والنزوع ، العوامل الحاضة والأسباب المانعة ، المقيدة ، كافة العناصر المؤطرة ، صارت تتجمع كلها متكاثفة فوق ما هو أضيق من سن الدبوس ، تلك اللحيظة المارقة ، المؤدية . وكنت أظن أن ما يصدر عني إليهن أشد ما عرفته ، إلى أن لمحت الريانة ، الزاوية ، الصادحة ، موضع تعلقي ، قادمة عصر يوم بمفردها ، تضم الحقيبة إلى صدرها ، أيقنت من تحقق وحدتنا في الخلاء ، برأي وبمسمع ، استنفرت شتى حواسي ، الظاهر منها والخفي ، لم أنتبه قط إلى مرور القطار ورائي ، ولا أدري حتى زمن تدويني هذا ماذا جرى ؟ ، إنما صرت إلى كينونة تطلع صوبها ، إلى الحومان ، الدنو بالنظر إن إمكن . توضأت تأهباً للحظة المحاذاة ، التوازي ، لم أخف توهج نظراتي ، ركضت ما بين عنقها وصدرها وتمهلت عند بطنها وحركة وركيها ، أمام ، خلف ، وشت بصائي في عينيها ويا للروعة ، لم تجفل ولم تخذل ، إنما واجهتني متحدية ، مستفسرة ، فتواجهنا بالنظر وعلقت بأهدابها ، بفوحها ، بظهرها ، بشرناتها ودوائرها ، ولأن ما عندي فاض ، فتسارعت أنفاسي لحظة تواجدها المؤقت ، العابر ، على خط واحد معي ، دمدمت نفثاتي ، وبدون أن تفرج شفتي سُمع جميري المكتوم وأدركها حتى أنها مدت الخطى ، منكفئة إلى الأمام ، وبعد اختفائها رحت أزوم محققاً اتصالي المستحيل عبر استنفاري قواي الأولى المنسية ، وتلك الحاضرة !

***

دانية

شتوية الوقت دفعت بي إلى طور جديد ، نهارات قصار ، حلول مبكر ، اكتمال الغسق في الخامسة ، قطار الخامسة والنصف القادم من أسيوط إلى مصر ، يجيء في العتمة بعد أن كان يسعى إلى زمن قريب في ضوء النهار المكتمل ، بنات الفترة المسائية في المدرسة الثانوية يلحقن به ، إنهن مضطرات . في تلك السنوات بدأ تزايد الأعداد واضطر القائمون على تدبير الأمر إلى تشغيل مرحلة مسائية ، فاشتملت المباني على فترتين ، أولى صباحية ، وأخرى تبدأ بعد انصراف الطلبة الذين يجيئون من قرى قريبة ونجوع وضواحي ومراكز تعد بعيدة .

عند عودتي من الجمعية بعد تقديم تقرير عن زيارتي لوحدة ملوي الإنتاجية . فوجئت بالطالبات فوق الرصيف ينتظرن ، يقفن في مجموعات ، يتحدثن ، يتوارين في بعضهن ، وكان بعض الشباب يتربصون على مسافات ، لكن لا يمكنهم التجاوز ، فالتقاليد ثقيلة الوطأة ، والعيون متنبهة ، ويمكن لمتواجد بالصدفة أن يُبدي الزجر .

عند وصول القطار تدافعن ، مصباح قديم وحيد ، ضوء من خارج العربة يضيء بعض أركانها ، مقعد خال ، لزمته ، تطلعت عبر النافذة ، فوق الرصيف بدت أسراب جديدة : أزياؤهن زرقاء ، يتصايحن فالوقت أزف ، وأصداء الرنة الأولى للجرس تتوالى مبتعدة .

حطت إلى جواري ضاحكة مع إحدى زميلاتها ، لم تنتبه فمست جسدها وسرعان ما نأت ، غير أن نوحها العفي غمرني ، تلشمر الفتى أريج، ومن الثنايا الخفية إشارات مرسلة ، كما أنها جاهزة للتلقي ، إنها السادسة عشر وربما أقل ، بالتأكيد في حدود الخامسة عشر : لمحت قسماتها بسرعة ، جميلة ، مصونة ، ملاحة غير مطروقة بالنظر : حيية ، تشاغلت عنها بالتطلع من النافذة لأبدو غير عابئ ، منصرف عنها مستغرق مع أني بكليتي متجه إليها .

بمجرد تحرك القطار وتجاوزه الرصيف وخروجه من حد المدينة جرت عتمة دامسة حجبت الكل ، كأن النوافذ مع اتساعها لا تؤدي إلى شيء ، والغريب أن الأصوات راحت في تلك الغربة الدجوجية ، انقطعت عن كافة العناصر عدا تلك الكينونة الحسية المشعة إلى جواري فوضعت الخطة وشرعت في التنفيذ .

دهمت بضخذي صوبها : استبشرت ، لم ألق أي رد فعل : ملت قليلا متجهاً إليها ، سرى إليّ دفئ المنحنى المؤدى إلى الردفين ، حافظت على اتجاه نظراتي صوب الخلاء المزروع المعتم ، إيقاع القطار ، العجلات واحتكاكها بالقضبان ، عبورها الفواصل الدقيقة ، ولتلك الفواصل الإيقاع المؤطر ، المؤثر ، المؤدي ، وصلني القبول فتقدمت أكثر . صار جانبي الأيسر

ملتصقاً تماماً بجانبها الأيمن ، تململت لكن باتجاهي فتضاغطنا بقوة ، بعد لحظات من الثبات تشرب خلالها جسدي تدفق دمائها المتزايد وتصاعد حرارتها ، خاصة عند بدء ميلها مستندة إلى الإمام ، لم أسمع زفراتها ، إنما رأيتها ، عندئذ سحبت بأصابعي إلى صدرها ، نزلت متمهلاً ، ملتزماً بفقرات ظهرها ، حتى نهاية الكتزة الصوفية ، رفعتها لأصل إلى حالة تورتها ، وعلى مهل حاذق لا يتناسب مع أنفاسي اللاهثة وتوقدي وتصاعد الحمية عندي دفعت بأصابعي تحت قميصها الرهيف لتتصل مسامي بمسامها، وأهبط إلى بداية مرفق الردفين الجامدين ، الناهضين ، متجاوزاً حن واديها ، معدلاً وضعي بحيث أصبحت راحتي متوسدة بطنها الوثيرة : خشيت تبدل ركني ، سحبت يدي مرة واحدة ، ودفعتها من تحت التنورة مباشرة ، مستنداً بذراعي الأخرى إلى النافذة ، ولأول مرة أدرك نعومية الأنثى ، ذلك الملمس المسكر المرنوى عند الفخذين المتضامين ، رحت أحرك أصابعي برفق ، بمحبة ، بشوق وتوق ، وتوقد ، لم أسمع ازدرادها لريقها غير أنني شعرت به ، ملت ناحيتها لأتنسم رفرفتها ، متلقياً تمتمتها ، همسها اليمامي ، رجعها ، تباعدها عن بعضها ، ترجرجها ، أناتها القصوى، سمعت حروفها من بين حشرجتها الشيقة .

"لا تجرحني .. اعمل معروف .."

وصاحب ذلك انفراجة الطريق المؤدي إلى قطيفتها النُّمَيْنُومَة ، المبتلة : تخليتُ عن حذري ، دفعتُ يدي الأخرى إلى صدرها ، غير أنها تلقتها وغرست أسنانها في راحة يدي ، فسجدتُ احتراماً لهذه النعمة !

***

نسائم

لو أحصيت مدد استعادتي تلك المحيطات العابرة وتمعني فيها وتمعني بها لكان أضعافاً مضاعفة لما عرفته بالحس ، ذلك أنني سعيت لكن عبثاً لم أستدل عليها ، لم يكن لدي أوصافاً محددة ، جلية ، أو اسماً وعنواناً ، مجرد مس قوي أودع أثره في المسام وأثر من نضام محموم وامتزاج بين ما لا يمكن الإمساك به أو تعيينه ، غير أن نسيمها مثل عندي ؛ وصلتي بالروائح متينة ، حتى لأستدعي اللحظات بواسطتها ، واهتدي إلى الكوامن الخفية بها ، بآلة لوحها تخللني ، ما ينبعث من شعرها مغاير لما يبثه نهداها، أو ردفاها ، أو نعومتها الجلية ، رغم وعيي الآثم لم أهتد ، ثم أتوصل ، صرت أغادر سمالوط إلى مدينة المنيا عصراً ، مرة مستقلاً عربة أجرة ، أو حافلة ، أو أذهب إلى مقر الجمعية صباحاً بالقطار وأبقى في المدينة ، أتناول غذائي عند "أبو جلال" يأتيه القوم من كل فج ، له شهرة ، يقع مطعمه في مواجهة مبنى فندق سافوي ، مطل على الشارع الذي يبدأ من ميدان المحطة وينتهي عند كورنيش النيل . إنه مقهى أيضاً ، يقدم وجبة متقنة ، طبق من الفول مجوهر الحبات ، نوع جيد بعد هرسه يصبح أنعم من الزبد وأملس

من بشرة العذراء ، ياه .. لم أتصور طراوة آدمية عند بلوغ تلك الدفائن المكنوزة ، صارت أساس مقارنتي ، مرجعي في الليونة حتى زمني هذا . إلى جوار طبق الفول كوب من الحليب الدسم ، قشدته سميكة ورائحة الضرع متصاعدة . طبق صغير به قطعة باذنجان مخلل ، وبصلة وشرائح خيار ثلاث. ثم يلي هذا كوب من الشاي ، ويمكن للإنسان بعد ذلك أن يمضي واثقاً ، قابلاً للتحدي وصنوف المنازلات . أما أبو جلال فكان يجلس فوق مرتفع مشرف على المكان ، يتناول المارك من النادل ، ويدقق ، يرتدي جلباباً بلدياً من الصوف ، وطربوشاً أحمر اللون ، وكان الطربوش يمضي إلى انقراض بعد أن اعتبرته الثورة من علامات العهد البائد ، يهتم بسؤال زبائنه عن أحوالهم ، ويطمئن إلى رضاهم واستمتاعهم بما يقدم ، وجبة متقنة لا أستدعيها إلا وأحنو ، كنت أدفع مقابلاً لها قدره خمسة عشر مليماً فقط لا غير ، فما أمتع وما أيسر وما أبهج خاصة أن هذه القعدة ارتبطت بانتظاري خروج الصبيات المستوفزات الساعيات كبانات الطير ، أسبقهن إلى الرصيف ، أتخذ موقعاً يمكنني من التدقيق ، ثم أقترب متنسماً، مستنشقاً ، أتجه إلى المقعد ، جاورت الكثيرات وعرفت مسرات وتجاوزت ، لكنني لم تحنو رئتاي على نسيمها ، أبداً لم أهتد إليه ، والغريب أنني استعدته طازجاً فواحاً في تارة أخرى وفي ظرف وعمر ، مغاير لكل ما عرفت عندما قصدت الولايات المتحدة لشق صدري وإصلاح ما أفسده الوقت في قلبي ، وكان ذلك بعد واحد وثلاثين سنة .

***

زعقات..

يوم جمعة ، وما أصعب الانفراد ، يغادرني الجميع بعد ظهر الخميس ، يشتري محمد لحماً أو طيوراً مذبوحة من سوق سمالوط صباح الخميس ، ويستفسر فتحي عما إذا كنت في حاجة إلى شيء ، ويختفي النعماني من ظهر الأربعاء ، لا يبقى سواي في هذا الفراغ كله ؛ تحيط بي الجدران والأعمدة ، وفي الليل أصوات المكان التي لم آتآلف معها لعجزي عن تفسير بعضها ، ويقيني أنه صادر من داخل القصر ؛ لم يتفق هذا لي حتى في استراحة الري ، أما أصوات القطارات فكانت مغايرة لتلك التي أتقنت تمييزها عند إقامتي في الاستراحة ، رغم أنها نفس القطارات وعين المواعيد ، إلا أن الضجيج الناتج مغاير ، زعقات مختلفة ، صفير أنحل وأنقى ، تكتكات أليسرة عندي ، يبدو أن ذلك راجع لاختلاف المسافات ، والفضاءات ، وترديد الأصداء . في الاستراحة كنت أقرب ، لا يفصلني إلا عرض الترعة فقط ، هنا يمتد الطريق السريع أيضاً ، الخلاء مباشر ، منطلق ، انتبهت خلال توقعي وانتظاري الفوارق بين أصوات القطارات الناتجة عن اختلاف الأماكن التي يمر بها ، عند عبور المدن ذات البيوت المتراصة

والشوارع المتعامدة ، المتوازية، والميادين المتلقية ؛ المرسلة ، عند اجتياز الخلاء المزروع ؛ أو المحاط بالأشجار ، النخيل ، حقول قصب السكر الكثيفة ، المتماسكة ، زراعات الذرة وما تخفيه ؛ الجسور الصغيرة ، الجسور العريضة الممتدة فوق الترع ، القنوات ، الأنهار ، والكباري الواصلة بين مرتفعين ، للتغيير وقع مختلف هنا أو هناك ، وكنت أعرف الفروق بين صوت القاطرات البخارية العتيقة ، وتلك الجديدة التي تعمل بالديزل ، ثم القطارات الملتزمة بالأسلاك الكهربائية ، التي ترضع منها الطاقة وتستمد العزم ، عجيب أمر تلك الأصوات إذ غلب عليها كلها شجي القاطرات المعدنية ، الاسطوانية لها عدة مداخن . لكل منها صوت متميز ، فثمة ثلاث، كل منها في سمك العصا ، فوق كابينة القيادة ، الوسطى أطولهن ، يشد السائق حبلاً فينطلق الصوت طبقاً لقوة الجذبة ، الصوت المنبعث أثناء الوقوف بالمحطات ينبئ بقرب الحركة ، وكلما دنا الموعد ، ورن الجرس للمرة الأولى فالثانية تتصف الزعقة بالحزم وتبث النذير إلى الأسماع ، إلى القلوب ، إلى الأفئدة ، إلى أسفل تنفث مواسير البخار دفعات متتالية لها إيقاعها المغاير ، أما المدخنة الرئيسية فتدفق الدخان القاتم منها بات للنُّذُر كافة . أحياناً يكون للصفير أسبابه عند الانطلاق بأقصى سرعة متاحة بين المدن وعبر المسافات الفاصلة بين البلاد ، وأحياناً لا يمكن تلمس سبب واضح إلا ملل السائق أو ضجر مساعده ، أو الرغبة منهما في مخاطبة المجهول المتربص عند كل لفة عجل ، لم يشجني إلا صوت القطار من بعيد ، عند عبوره المدن الليلية ، في معتقل طرة السياسي ، في لحظة معينة من الليل ، قرب الثانية ، أنتظر صفارة واحدة ، مستطيلة كالعويل ، ولشدة

أسماي أكاد أوقن بانطلاقها مني . تعبيرها عني ، معقول أن يحتوي هذا الكائن الأصم على هذا الحزن كله ؟ كان احتماله وعراً زمن تقييدي ، لكنني انتظرت ولم أملّ قط .

صباح جمعة هادئ ، كنت أقف وحيداً أمام القصر الخاوي ، العاشرة تقريباً ، ذلك الهدوء الكابي الذي يميز أيام العطل والإجازات ، يتأخر القوم في النوم ، تخف الرِجْل من الطرقات وهذا مكثف للوحدة عند الغريب الفرداني .

كنت في الطريق ولا أحد غيري ، القصر ورائي ، والترعة أمامي ، وأشجار النخيل والدوم والجميز العتيقة ، وخلاء .

فوجئت بقطار لم أعرف مثله من قبل ، ولا بعده حتى وقت تدويني هذا ، لا يصدر عنه أي صوت ، لكنه يبث حضوراً ناعماً ، ماسكاً ، اكتمل شخوصي نحوه فلم ألتفت يميناً أو يساراً ، عرباته متصلة ، يبدو كأنه وحدة متصلة ببعضها ، لا قاطرة ولا مقطورات ، إنما طول متحرك ، ممتد ، ذو لمة ، يقدر بطئه الظاهر إلا أنه يمرق ولا يمر .

وميض ، وميض ، قرب المحطة بدأ يرتفع متقدماً صوب السماء ناشراً خطين من زرقة عميقة ، لا أعرف حتى الآن ، هل انبعثا منه أو امتدا منه ، ولأنني لم أتوقع ، ولم أقدر ، كتمت طوال المدة المنقضية مع أني ما زلت غير قادر على الشرح والتفصيل واستيعاب الإشارة .

***

فجوة

جاءت .

لم أسع إنما أنت ، طرقت الباب بنظراتها ، بوقفتها ، بتوقها ، بانتظارها الإشارة الداعية ، أجلس في الشرفة الأمامية ، المتصلة بالمدخل عبر الدرج الفسيح ، الباب الرئيسي من حديد مفرغ على هيئة أغصان وحنيات أندلسية من الفراغات يكتفي رؤيتها ، لم أدعها تنتظر ، تقدمت لأفتح المصراعين الثقيلين ، دخلت في خطوة واحدة استندت بظهرها إلى الجدار ، تلتف بشُقّة سوداء لا تظهر إلا ملامحها ، وشم مثلث عند مقدمة الذقن ، وأنف صريحٌ متطلع ، وجنتان غائرتان يبرزان عينين يؤطرهما كحل ، كل شعيرة رمش مستنفرة ، مزمومة الشفتين ، تنفث رغبة صماء ذات هدير مؤد ، وقوفها وأزيزها أطلعاني على ذاتي وكينونتي أثناء احتوائي النسيات الثلاث لحظة مرورهن أمامي وقمعي لنزوعي المطلق وتوقي إلى التواصل حتى لتصدر عني دمدمة أستعيدها في خلوتي فأعجب وأخجل .

لم تنطق وأخذت منها ، فهمت : بسطت يدي داعياً

"لوحدك ؟"

أثار همسها تحميصاً سرى بيننا ، إيماءة واضحة لا تخفى إلا على أبله مصمت ، أومأت أثناء تقدمي لها ، صعودي الدرج بعد إغلاقي الباب الخارجي : دخولي الغرفة الفسيحة التي أتخذها مكتباً أوقات العمل ، وأرقد فيها بعد انصراف القوم ، ونزول الليل ، منها أصغى إلى أصوات القصر التي أتعرف كل ليلة على جديد منها ، اتجهت إلى المقعدين ، لم أدر ماذا أفعل بالضبط ، لكن أردت الانغماس في تحرك يبدد حرجي ويتيح لي الوقت لأدرك ما ينبغي فعله في مواجهة أنثى مكتملة ، هائمة ، تتطلع بلا حرج ، تطلبني ، إنه الانفراد الأول في حياتي ، حتى هذه النقطة ، عندما التفت لأدعوها إلى الجلوس ، بوغت .

الشُقّة السوداء تحت قدميها ، أيضاً جلباب من الكستور طويل الأكمام، ذراعاها النحيلان عاريان ، جلباب قصير من قماش خفيف يؤدي مباشرة إلى جسدها المشدود المستنفر ، يناعته تنتشر بسرعة ، أقرب إلى ثمار الجوافة الطازجة المنتزعة للتو من شجيراتها ، هكذا أستعيدها دائماً .

تذيب بصاتها ، تلامس خصرها بأصابع يديها ، في وقفتها شروع وتحد واستجداء ، لم أدر ما يجب عمله ، أو قوله ، ابتسامة حائرة على شفتي ، أشارت برأسها كي أتقدم ، لكي أخطو ناحيتها ، ألا يكفي إقدامها وشروعها ، عندما واجهتها لفحتني أنفاسها ، انشبت عيناها في ملامحي ، في جسدي ، محرضة ، داعية ، مستغيثة ، عضت أسنانها ، قالت من بين فرجاتهما .

"مشتاقة .."

ثم زفرت هامسة

"مشتاقة قوى .."

احاطت عنقي بيديها ، مالت بسرعة إلى الأرض ، شدتني معها ، راحت تجوس بأصابعها في صدري ، تحاول خلع الجلباب ، لا أعرف من أقدم على الجذبة الحاسمة ، صرنا إلى عرى تام ، غير أنها وبخت وضعها ولم أقدم ، استلقت على ظهرها مغمضة العينين ، تماماً كما فعلت علية تحت السلم ، لكن شتان ما بين رقدة الطفلة المشتبهة وذلك الاضطجاع الملتهب ، الوقاد ، انفراجة الفخذين ، فوجئت بالمواجهة .

تلك الفجوة المعتمة المصاحبة ، التابعة لحركتها المتموجة ، أنفاسها تتسارع حتى أدركتني خشية ، ربما خفقها أذى ، دلمت بجسدها نحوى ، غير أنني في تلك اللحظة أدركت عُسْر أمرى ، وأن جوابي تأخر ، ولأنني أعرف حالي أيقنت انزواء الأمل فندمت على إتمام الخلوة وتمنيت الانقطاع، غير أنها تشبثت بي ، خمشت صدري ، أحاطت خصري ، علتني ، مرغت وجهها على جانبي عنقي وعندما مدت يدها إلى صميمي بذلت الجهد لأفصالها ، ابتعدت عنها ، بدا عُريها المكتمل وجسدها المستوفز : المستفر ، الغارق في بخار لهبه المستعر ، استمر انحناؤها ، تقوسها ، تمنيت اختفاءها ، ابتعادها ، قامت ، قالت آمرة :

"ابعد بعينيك عنى .."

استدرت صوب الناحية الأخرى ، عند خروجها من مجال بصرى

استبعدت فجورها فتداخل عندي الفضول بالاشمئزاز الغامض ، ولاحت عندي رغبة خفية ، لكنني عندما استدرت كانت تنحني لتعيد حذاءها القديم ، ولاحظت الخلخال الفضي حول ساقها اليمنى ، فردة واحدة ، تذكرت عريها المكتمل منذ ثوان ، فسرى تطلعي إليها غير أنني لم أسع ، مع تمام خروجها سمعت ألفاظاً متداخلة لم أميز بينها ، وقفت أتابع خطوها السريع ، منحنية إلى الأمام ، تحتوي جمرتها الملتهبة ، بمجرد ذهابها ، ابتعادها ، تحرك أمري ، وسرى الدفء إلى سائر جهاتي ، وتحرك ندمي .

كيف أتركها هكذا ؟ كيف أعجز عن تهدئة جمرتها ؟

استعدت تفاصيلها وحناياها وبزة تهديها ، وسؤال رغبتها فاستعر وقيدي ، هكذا استمر الأمر فنلت منها بالمخيلة ما لم أعرفه بالتمكن وإن التمست لنفسي العذر بعد أن تزايد وعيي بكوامني وأصول بواعثي ، وهذا ما تأكد عندي بعد لقائي بزكية رغم ميل بختي وسوء حظي .

***

قصر

أول ظهور لها فوق رصيف المحطة ، مرة عند الجهة المؤدية إلى بحري ومرة عند الجهة المؤدية إلى قبلي ، لذلك حار الكثيرون في أصلها ، خاصة أن أكثر من رواية نُسبت إليها ، ولكن ما أكده لي فتحي الساعي ، الوثيق الصلة بأطراف عديدة في المدينة أنها من قرية صغيرة شرق النهر ، وأنها يتيمة ، كانت تعيش مع جدها الذي بدأ يتبه إلى شبوب الطفلة الصغيرة التي استوت فجأة أنثى ضاجة ، جميلة ، وقوى الأمر عليه مع إدمانه القديم لشراب عرق البلح الذي يطلق عليه محبوه "المهلك" لشدته وقوة تأثيره .

أول مرة رأيتها فوق رصيف المحطة ، وآخر مرة طالعتني فوقه ، في المحطة يمكن لأي إنسان أن ينتظر بدون إثارة الانتباه أو تحرك فضول الآخرين ، خاصة إذا كانت القطارات لا تكف عن المرور بها وتوقف العديد منها. لذلك تبدو للكثيرين نقطة ملاذ ، ومقصد في حد ذاته ، وخلال مدتي في سمالوط عرفت الكثيرين من أهل المدينة الذين يجيئون إلى هذا الرصيف أو ذاك ، يمضون وقتاً ، ويقضون فترة لغرض أو بدون ،

غير أن زكية علقت معي لسنوات وعبرت بي وعبرت بها مراحل شتى وحتى زمن تدويني هذا أراها فيرتجف داخلي ويتحرك ما عندي ، رغم ثقتي بتغير صورتها وفقدانها ملامحها وطمثها في العمر ؛ وهذا حال عجيب أمعن النظر فيه ، وأطيل التحديق ، بقاء الصورة الأولى مع انقطاع العهد وانتفاء اللقاءات ، لذلك لم أسع قط إلى رؤية من عرفتهن وامتزج ريقي بريقهن وضممت نظري في نظرهن بعد انقطاع المودة رغم سنوح الفرصة وسماح الأحوال بعض الأحيان .

عند الطرف القصي جلست ، بالضبط في مواجهة الباب الأخير للعربة التي لا تليها أخرى ، ربما لاحت لي تضاريسها لأنني كنت بعيداً عنها بقدر، قاعدة تطوي ساقيها تحتها ، تميل ، اتجاه جسدها هذا حسم الأمر ، إذ أوحى بعظمة النهدين وعرض الردفين وتكوثر المدخل ونزاهته ؛ حاولت التشاغل عنها بالنظر إلى النخيل وأشجار الجميز على الجانب الآخر ، قرأت اسم المحطة مراراً قبل أن يبدأ اتجاهي إليها بخطى بطيئة ، متدة ، متسترة بعدد من الركاب قليل ، فارقوا قطاراً متواضع الشأن ، يتكون من ثلاث عربات كلها للدرجة الثالثة ، يعمل بين مراكز المحافظة ويتوقف أيضاً عند بعض المحطات المنسية .

انتبهت ..

رصدتني عند التوجه إليها ، قالت لي فيما بعد إنها كانت واخدة بالها من اهتمامي "قوى" لكنها لم تتوقع ما أقدمت عليه ، توقفت أمامها ، انحنيت متناولاً البقجة ، قلت باختصار حازم ..

'اتبعيني ..'

حرصت على أن تظل المسافة شبه ثابتة ، حوالي أربعة أو خمسة أمتار ، الحق أن هذا ما خيل لي ، ربما كنت أمضي مسرعاً أكثر من أي وقت ، ولكن عند الحذر الشديد ينتبه المرء إلى ما حوله ؛ ويتوهم ما يريد . عندما وصلت إلى القصر لزمت جوار الباب ، تيقنت أنها ورائي ، تتبعني .

'تفضلي'

ليست بالطويلة أو القصيرة، رغم تدملجها إلا أنها لم تكن بدينة، الطرحة السوداء تؤطر ملامحها لكنها لم تخف نضارة البشرة وتدفق الحيوية رغم وعورة الظروف، عندما تم انفرادنا، وضعت البقجة فوق السجادة المفروشة التي أتمدد فوقها ليلاً. قلت ضاحكاً باسطاً يدي إلى ما حولي .

'القصر قصرك ..'

عيناها جريئتان ، تتجاور فيهما الدلالات وتشرد ، تيه وحزن ورغبة وشقاوة السن ، قالت :

'القصر واسع قوي .. وفاضي قوي ..'

ضحكت ، بدأت أرصد ملامح ارتباك مناقض لإقدامي وطفرة توثبي المتبقية فوق رصيف المحطة ، ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟ ، حضورها طفولي، ربما كان ذلك منطلق محاولتي المزاح ، ماذا يجب أن أقول ؟ استعدت بعض المواقف المشابهة في الأفلام المصرية ، لكنني لم أر إلا شذرات ، ولم أقدر على استرجاع أي حوار ، فجأة قالت بنطقها الصبياني كأنها تطلب قرصاً من الحلوى ..

"ممكن استحمى . "

بوغت ، غير أننى أسرعت نحو الحمام الفسيح فى الطابق الثانى حيث البانيو العتيق الفسيح ، لم يمتلئ بالماء منذ سنوات طويلة ، كنت أكتفى بالوقوف فيه وتناول الماء الساخن من الصفيحة بالكوز ودلقه فوق دماغى ، هذا ما بدأت أرتبه لها ، أشعلت الموقد الغازى ، تأكدت من انتظام لهبه ، وضعت الوعاء المعدنى المستدير فوقه ، تأكدت من وجود الصابونة ، والفوطة ، رددت بينى وبين نفسى "من الأفضل أن تزيل أثر الشوارع عنها.. " ، حرصت على ترتيب كل شىء ، عندما أيقنت أن شخصاً يقف بالباب استدرت فبوغت ، زكية حاضرة ، مكتملة كما ولدتها أمها .

فتية ، مرسلة لضوء خاص يجسد نضارة مرنوية ، صدرها قائم بذاته ، الحلمتان بارزتان تحيط كل منهما هالة غامقة ، مؤطرة ، ولسنوات طويلة لم أعرف منطقة مؤدية ، مرتوية كتلك التى تعلو افراجتها ، وكانت ملساء تماماً ، لا تبزغ منها شعيرة واحدة ، تقدمت منها محاولاً الاستيعاب ، مؤجلاً الإقدام ، كنت راغباً فى إبقائها خلال دائرة التمنى والترقب ، لا أريد التمكن منها حتى لا أفقدها ، وهذا ما صار إليه أمرى فيما تلى ذلك أو قلنقل إنه استعداد وتكوين ، وتأهب ، أعطت كتفها ، كانت غزيرة فى كل شىء ، ما يُرى منها وما لا يمكن استيعابه بالنظر ، استقرت داخل البانيو، أدارت ظهرها تتفلج ردفاها فى انبثاق خلاق أجبرنى على الإدراك لمايلى ، غمرت جسدها بالماء ، وطلبت منى أن أدعك ظهرها باللوف ، ابطأت وأسرعت وترفقت بالخبيئات البارزة والغوائر وكافة ما أتيح لى إدراكه من معالم ، والحق أننى كنت أنتقل من وعى إلى وعى ومن حال إلى

آخر ، حتى حركة يدى انخلت إيقاعاً مختلفاً أبطأ ونظرانى ودقات قلبى ، صرت أتناغم معها بشكل ما ، وشرعت فى خلع ثيابى تجنباً للبلل من ناحية وسعياً إلى موقف ترجد علىّ وترددت عليه بالمخيلة منذ إدراكى سنوات المراهقة ، ها أنذا منغمس فيه تماماً خلال أول تعرف مباشر على جسد أنثوى ضاج : منفلت ، مؤطر ، سيظل مرجعاً أساسياً لسنوات طوال ، تمازجت حركاتنا ، وقع تماس بين الحواف ألهب وشملل فاقتربت ، إلا أنها دفعتنى بأصبعها

"لسه شوية .. مالك مستعجل .."

عاودت الكرة ، إلا أننى أصغيت بدهشة وخوف وقمع ..

خبطات حادة فوق الباب الخارجى ، يزعق أحدهم

"افتح يا افندى .. فيه أمر .."

لا أعرف كيف ارتديت ما خلعت ، أمام الباب أربعة أشداء ، ملامحهم قاسية ، اقتحموا الباب : تساءل أحدهم :

"فين زكية .. انيك وكيل النيابة يطلبها .. لا تنكر .."

قبل اكتمال نطقى كان اثنان ينزلان من الطابق الأعلى ، أحدهما يحملها فوق كتفه مبتسماً ، كانت عارية تماماً ، لفوها فى سجادة من بقايا الأقمشة ، لم أدر هل أحضروها معهم ، أم كانت فى مكان ما بالقصر .

"هدومى .."

صاح أحدهم وكان يرتدى جلباباً

"هس .. ولا كلمة .."

أشرت إليها ، قبل لحاق آخرهم بالثلاثة الذين حملوها ملفوفة وراحوا يعدون باتجاه المساكن الجديدة قبلي البلد ، صاح

"احمد ربنا .. كنت حتروح في ستين داهية .."

قعدت فوق السلم ، وحيداً تماماً ، محبطاً ، غير مصدق لما جرى منذ رؤيتي لها فوق الرصيف ، وفي الليل أدركني خوف ، وبدلت مكان نومي مرات ، فيما تلى ذلك من أيام حكى لي قنحي الساعي أخبارها فيما كان يقصه عليّ من أحداث البلدة ، قال إن المتناقل بين أهالي المدينة لفها في سجادة ونقلها إلى بيت وكيل النيابة الذي طلبها للخدمة عنده ، سألته حذراً عن المكان الذي عثروا عليها عنده ؟ ، قال إن البعض يؤكد اختطافها من محطة القطار .

أوضاعها كافة علقت بي ، بدءاً من قعدتها فوق الرصيف ، وحتى تدلي رأسها وتطلعها إليّ مستسلمة ، شبه باسمة وكأنها تمارس لعبة ما مع من هم أشد منها ، الأقدر على حملها .

رويت لمحمد أمين المخزن ما جرى فنصحني بالحذر ، وعدني بتقصي الأمر ، في كل يوم يفضي إليّ بما تتناقله البلدة عن زكية ، بدءاً من اعتداء جدها عليها وهروبها ونومها في المزارع وعند زوايا الطرق المؤدية وعلى الأرصفة وداخل عربات القطار المهجورة المنتظرة منذ سنوات على هامش المحطات إلى استئثار وكيل النيابة بها وإقامتها عنده ، وعدم سماحه لها بالنظر من النافذ أو الوقوف في الشرفة ، وأكد لي أن ضابط النقطة يشاركه

فيها ، وأنهما يتبادلانها ، يوم لهذا وآخر لذاك !

رحت أسعى متحسراً عليها ، مستعيداً عُريها وملمس جسدها الناعم وانحناءتها ، وتَشَارُب صدرها رغم تقوس ظهرها ، أحدق في الطريق الطويل المحاذي للترعة ؛ لعلها تظهر فجأة ، سعيت بخطوي إلى حيث رأيتها لأول مرة ؛ بدأت أقضي ساعات طويلة فوق رصيف المحطة ، حتى أني حفظت ملامح الوجوه الصاعدة إلى القطارات أو النازلة منها ، غير أنني تعرفت إلى بعض من يقصدون المحطة لأسباب شتى وقامت بيني وبينهم صلات .

ومن هؤلاء الأستاذ عدلي موجه الفلسفة بالناحية .

"تصور .. موجه فلسفة هنا .. أي فلسفة ؟ تصور .."

قوامه نحيل ، طويل ، بارز الحنجرة ، طويل الأنف ، جاحظ الأنف ، يبدو كأنه على وشك الجري ، ربما لانحنائه المستمر ، يتحدث بالعربية الفصحى ، أعزب ، لم يتزوج ولا ينوي ، يقول باختصار :

"فات الأوان .. فات"

مع أنه في السابعة والثلاثين إلا أنه يبدو أكبر ، أكثر تسلماً ، عنده إلمام بعلوم الحروف ودلالاتها وأسرارها واللغات القديمة . حدثني عن عالم موازٍ لعالمنا الظاهر . له أهله ومفرداته ولغاته وطقوسه وفيه المؤمنون الموحدون والكفار المارقون .

"يعني ممكن أن يكون الآن بيننا رجل هناك ينام مع امرأته .."

"إذن .. بماذا نوصف نحن ؟"

لا يبتسم ، إنما يحملق إلى امتداد القضبان ، يشير بأصبعه الطويل

"بعض القطارات التي تمر هنا تسافر إلى هناك .."

أتطلع إليه ، أصغي إلى نبرة صوته ذات المستوى الأفقي ، الواحد ، يستمر كأن وجودي أو عدمه يتساويان عنده .

"بعض السائقين يعبرون وهم لا يعرفون ، يقفون بمحطات يجهلونها ، ويرحلون إلى أخرى لا يمكنهم قراءة عناوينها ، ويرون مخلوقات لا يمكنهم وصفها ، يعودون عند نقطة معينة لا يمكن تحديدها .."

أحياناً ينضم إلينا مصطفى أفندي ، موظف العلاقات العامة بمجلس المدينة ، غاوي صحافة . أحياناً تنشر له الصحف رسائل في بريد القراء ، خاصة في المناسبات الوطنية والأعياد الجهادية التي يحفظ تواريخها وأوقات حلولها ، إنه يصدر صحيفة محلية ، يطبع منها خمسين نسخة في مطبعة قديمة تقع أمام مركز الشرطة وتطبع البطاقات والإعلانات التي توزع باليد والمنشورات الانتخابية في المواسم الساخنة ، وهذه الصحيفة التي تضم اثني عشر صفحة في حجم الكراسة المدرسية ، تضم أخبار المسئولين عن قيادة المدينة ، من مأمور مركز ، ورئيس مجلس محلي وأمين الاتحاد الاشتراكي ، مع أخبار شقيق المشير عبد الحكيم عامر الذي يظهر عند العصر مرتدياً جلباباً وفوقه معطف ، يمسك بيده عصا ويتسابق الجميع إلى السلام عليه ومخاطبته "أبونا مصطفى عامر" هكذا يذكره الجميع في غيابه أيضاً .

مصطفى أفندي دائم الإشادة به ، ليس لأنه شقيق أهم رجل في مصر ، لكن لشهامته وجدعنته واتخاذه جانب الضعفاء . مصطفى أفندي يكتب مقالين موقعين . الافتتاحية ويخصصها للشأن الداخلي ، ومقال سياسي يتناول فيه الأمور الدولية بما لا يتعارض مع الخط الرسمي المعتمد للدولة . إنه متابع جيد لما تكتبه الصحف ، يقص ويلصق ويحتفظ ، لديه أرشيف ثمين ، يشير إلى دماغه ..

"إنه الذاكرة .. جريدة بلا ذخيرة لا تساوي .."

إذا جرى حديث عن حرب فيتنام يبادر قائلاً :

"أنا كتبت عن ذلك .."

ثم يذكر رقم العدد وتاريخ صدوره ، ويتلو ما خطه في المقال ، سواء عن المشكلة القبرصية أو قضية الكونغو ، أو الحرب الباردة ، وكان يشك في اطلاع محمد حسنين هيكل على أعداد الجريدة مسبقاً واستفادته مما ينشر فيها ، يبدو ذلك واضحاً في مقاله الأسبوعي بالأهرام .

"ليس ذلك ببعيد ، كل ورقة في المطبعة تروح منها عشر نسخ إلى القاهرة .."

كان يحفظ عن ظهر قلب عدداً من الرسائل المفتوحة التي وجهها إلى قادة الدول وزعماء العالم ، يشير بيده إلى نقطة ما في الفراغ ..

"أنا قلت لديجول .."

يحتفظ برسالة تلقاها من الرئيس سوهارتو عقب استيلائه على السلطة

من خلال انقلاب دموى فى أندونسيا أطاح بالحزب الشيوعى ، السفارة أرسلتها إليه ، عبر الجهات الرسمية ..

"كان يوماً ولا كل الأيام ، استدعونى إلى المركز وسألنى ضابط المباحث العامة عن علاقاتى برؤساء الدول وخاصة الرئيس سوهارتو .."

دائماً يحمل العدد الأخير : يبادر بعرضه ، والتنبيه إلى ما يحتويه ، نظر إلىّ وقال كأنه يرانى لأول مرة .

"يمكنك أن تكتب لنا أموراً أدبية .."

وعندما لاحظ تطلعى إليه ، تساءل :

"ألم تقل أن لك اهتمامات ؟"

يتصل الصمت أحياناً عند توقف الحوار ، وخلو المحطة من الركاب والمرور السريع للقطارات العابرة ، يرتفع صوته متلقاً ، وقوراً : يفصحى متمقة سليمة ، يتلو نص رسالته إلى الجنرال ديجول والتى يعتبرها من أهم ما كتب ويصفها بأنها قطعة من الأدب السياسى الرفيع ، ويؤكد استقرارها الآن فى وثائق قصر الإليزيه ، يقول الأستاذ عدلى إن القصور هناك لا قبل لأحد بوصفها . إنها متعددة مختلفة ، بعضها مشيد من الضوء ، وآخر من الأصوات ، وثمة قصور من الألوان لا غير .

غير أن وصول جرجس أفندى يقطع فى الأعم تلاوة الرسائل المفتوحة ، والوصف التوصيلى للعالم الموازى ، المتداخل معنا ، إنه مراقب التحويلة ، يقضى ساعات عمله داخل الكشك المرتفع ، المبنى من الطوب الأحمر ، والملىء بالمفاتيح الضخمة التى تتحكم فى حركة القضبان ، والسيمافورات ،

يساعده اثنان ، لكنه يقضى أحياناً ضعف الساعات القانونية ، اعتاد المكان وعشق عمله ثم إنه ماذا سيفعل فى البيت ، حيث الشجار والنقار مع الولية. أعرف تطورات علاقتهما وتقلباتها عن قراراته المتعلقة بالسفر .

"ساصحبها معى .."

او

"لن ترى ذلك البلد أبداً .. أسهل لها أن تشوف حلمة أذنها .."

منذ أن جئت إلى رصيف المحطة ، لم أسمع إلا حديثه عن تلك الرحلة التى يخطط لها ، وذلك السفر المتوقع بين لحظة وأخرى ، أصغيت إليه طويلاً وحاولت الرد على استفساراته ، غير أن الأستاذ عدلى همس لى يوماً أن مشروعه هذا عمره أكثر من عشرين سنة ، لكننى لم أصدقه قط ، ذلك أنه كان جاداً ، دقيقاً فى كل ما يقوله ، ملماً بمواعيد وصول وإقلاع الطائرات ، وسفن الركاب العاملة على الخطوط المنتظمة فى الاسكندرية والسويس ، متابعاً متفحصاً لأسعار النقد العالمى بالنسبة إلى الجنيه ، يحفظ العديد من عناوين الفنادق فى اليونان وإيطاليا وفرنسا واسبانيا وانجلتره وهونج كونج ، كذلك أحوال الطقس هنا أو هناك : وبالتالى ما يمكن اصطحابه من ثياب ، يتقن الاطلاع على كل تطور جديد فى القطارات ، يعرف أنواع المقطورات، وخصائصها ، وقدراتها ، والتحسينات التى تتم أولاً بأول ، بل إنه متمكن من اوصافها الفنية ، ومعروف فى المصلحة كلها بقدرته على إصلاح أى عطب دقيق أو صعب يحار أمامه الفنيون ، طبعاً فى البداية لم يكن مرحباً به ، بل إن شباب المهندسين فى الورش الثابتة والمتحركة سخروا

منه وتندروا حوله إلى أن جرت الوقائع المعروفة ، المتداولة في نطاق ضيق من مسئولي الدولة ، عندما وقع عطب في القطار الرئاسي سببه عدم القدرة على التوفيق بين فرامل مقطورة مهداة من روسيا السوفيتية والعربات العتيقة ، التي تعمل منذ بداية القرن ، وتم تجديد فرشها في نهاية العصر الملكي ثم أعيد ترتيبه ليتلاءم مع الوضع الجمهوري ، انتهى المسئولون عن المصلحة بعد طول عناء وبحث إليه : استدعوه إلى القاهرة في مهمة رسمية وصرفوا له عن كل يوم بدل سفر كامل مع استضافته باستراحة كبار الزوار بمبنى المحطة الرئيسية ، ثم اصطحبوه إلى محطة سراي القبة حيث يقف القطار الرئاسي داخل القصر الفسيح ، شاسع الأشجار والخضرة ، خلال ثلاث ساعات أتم إصلاح الخلل وعندما وصل الخبراء الألمان أبدوا دهشتهم للقدرة العالية التي تم من خلالها التوفيق بين نوعين مختلفين تماماً من الفرامل ، وأن المهارة التي أبديت والطريقة الفنية التي أتبعت يمكن أن تسجل وتعتبر مثالاً يحتذى ، غير أن أمل جرجس أفندي في مكافأة تليق بما أنجزه خاب ، كان يتوقع أن يأمر رئيس المصلحة بمكافأة مالية ضخمة أو إرساله في بعثة أو المشاركة في وفد من تلك الوفود التي لا تكف عن الرحيل إلى البلدان الأوروبية بحجة المعاينة أو التعاقد على استيراد القطارات ولوازم التشغيل وما شابه ، عاد إلى سمالوط ليخطط لرحلة متوقعة ، يتصل بمكاتب السياحة ، ويطلب عبر الهاتف حجز مكان أو اثنين طبقاً لعلاقته بامرأته التي تمر بأطوار عديدة في اليوم الواحد حتى عندما يخلو إلى نفسه تماماً في كشك التحويلة ، ساعة يرضى عنها وساعة يغضب عليها وفي كل الأحوال لا يكف عن الحلم بالسفر خاصة عند جلوسه بعد

الظهر على المحطة .

عند نهاية الرصيف ينام عبده سيمافور : إنه مجهول تماماً ، لا يعرف أحد أصله أو فصله ، ولم يخبرني أحد بأمر قاطع حوله ، يرتدي جلباباً لا يبدله صيفاً أو شتاء ، حافي القدمين ، يكنس الرصيف بجريد النخل ، ويرشه بالماء صيفاً ، ويبدو في ذروة نشاطه عند لقاءاتنا بالمحطة ، خاصة عندما تتجاور معاً ، الأستاذ عدلي ، ومصطفى أفندي ، وجرجس أفندي ، وسيد الأزهري مدرس اللغة العربية ، يروح ويجيء بهمة ، يتوقف على مقربة منا ، يرفع يده مؤدياً التحية بنفس الحماس الذي يقف به أمام السيمافور ، إذ اعتاد أن يتطلع إلى الذراع المعدنية المتحركة ، وعندما تميل إلى أسفل إشارة للقطار القادم بخلو الطريق وأمانه يزعق بصوت ذي هدير يمكن سماعه حتى أطراف المدينة .

"تمام يا أفندم .. تمام .."

ويظل شاخصاً ، رافعاً يده حتى تحرك السيمافور وعودته إلى وضعه الطبيعي ، عند انصرافنا أو ذاهبينا ينحني فجأة حتى ليكاد يمشي على أربع ويقول متوسلاً :

"والنبي تقعدوا شوية .. أنا ماليش غيرك .."

بعد عام أمضيته في سمالوط ركبت القطار من محطة المنيا متجهاً إلى القاهرة ، بعد صدور قرار بنقلي إلى المقر الرئيسي ، عندما اقتربت من المدينة تطلعت بمشاعر محايدة ، كأني لم أمض سنة كاملة هنا ، بدا القصر خلال المرور السريع منعزلاً ، وحيداً ، لم أطأه حتى الآن ولم أتوقف أمامه

رغم سفري إلى الجنوب مرات بالسيارة ؛ دائماً أفضل التطلع إليه من القطار . عندما توقف بالمحطة وبعد بدء تحركه شمالاً فوجئت بعيده سيمافور يقف رافعاً يده بالتحية شاخصاً إلى نقطة ما من القطار ؛ هل يعلم أنني داخله ؟

لم يمض شهر واحد إلا وكنت أمر بسمالوط مرة أخرى ، كنت في القطار المتجه إلى الجنوب ، رقم ثمانية وثمانين . . هذا رقم قديم ، دال ، ما زال سارياً حتى الآن ، غير أنني كنت في مقصورة بمفردي تقع في العربة التالية للمقطورة مباشرة مخصصة للمساجين والمعتقلين الذين يتم ترحيلهم بمعزل ، وتحت حراسة مشددة ، عندما اختلست النظر وقرأت الخطاب الذي تسلمني بموجبه ضابط الترحيلات الشاب دهشت .

حراسة مشددة من أجلي أنا ؟

لماذا ؟

أهكذا تعتبرني أجهزة الأمن ؟

أنا من لا أعرف الشجار ، ولم أمارس العنف قط ، لم أمد على أحد ، ولم أتخطط ولم أسب جاراً ولم أسبب الأذى لصاحب أو غريب ؛ ولم افكر في هروب ولم أشرع . حتى الآن أستعيد تلك العبارة فأبتسم لو كنت بمفردي ، أو أداري سخرية لو انني بين جمع ، كنت محاطاً بجنديين ، يحمل كل منهما سلاحاً آلياً ، وكان معصمي محاطاً بالقيد الحديدي وطرفه الآخر حول يد الجندي الأصغر سناً ، أما الضابط الشاب الذي يماثل منه عمري تقريباً فكان ينظر إليّ بين الحين والآخر ، ويستفسر عن أمور عابرة ،

ويتساءل عن تلك الفكرة التي تساوي البهدلة ، وكنت أتطلع إليه صامتاً ، غير راغب على الإطلاق في محاورته ، كان الليل مكتملاً عند مروري بسمالوط ، لكن موقع القصر لم يغب عني ، حددته من خلال النافذة والمحطة المارقة .

اين زكية ؟

اين ؟

امضيت في سجن أسيوط العمومي اسبوعاً في الحبس الانفرادي ، لا أعرف الغرض من المجيء بي إلى هنا ؛ لم يسألني أحد ولم أستدع إلى مقابلة محقق ، في اليوم السابع فتحوا الزنزانة ، ومرة أخرى أوثقت إلى معصم من اجهل ويبدأ ترحيلي إلى حيث لا أعلم تحت الحراسة المشددة، ولكن عند وصولي إلى محطة أسيوط العمومية ، وأثناء انتقالنا فوق الكوبري الداخلي المقام للمشاة أدركت أننا عائدون إلى القاهرة .

انحناءتها ، تقوسها ، قبوية ردنبها ، أعرفها ، أستدل على تكوينها ولو استترت تحت أكوام من ثياب ؛ لو سعت بين عجيج من البشر ، كينونتها التي كانت قاب التماس بكينونتي ، ها هي تتمد ملتحفة بطرحة سوداء لم تخف نضارتها عني ، منذ إقساري على التخلي وانتزاعها من صوابي .

"زكية"

صحت غير عابئ ، تطلعت صوبي ، ناضت بدهشة وشيت قليلاً ؛ بدأ لهيب خافت يسري عبري ، عندما تثاقلت خطواتي وأصبح تطلعي إلى الخلف وعراً ، أينعت رغبتي في القرب منها ، وددت ، تقت إلى فك

أسري، اقترب مني الضابط، كان أكبر مني سناً ؛ ملامحه حزينة إلى حد ما،

"مالك ؟"

"أين ؟ .."

تطلع إلى هناك ، عاد ينظر متعجباً

"لا أرى أحداً .."

لم همس في رجاء

"يا بني .. إنني أحترمك ؛ وما أرجوه أن تساعدني على إنهاء المأمورية بلا .."

غير أن بصري وحواسي ومسامي وسائر ما بث إليّ اتجه صوبها ، صارت كينونتي كافة وتراً مشدوداً لا لون له إلا بالانطلاق والفكاك ..

***

مَطْلَع

أحن وأهفو إلى دَخْلة القاطرة سوداء اللون ، خلفها عربة الفحم وخزان المياه والدرجات الثلاث وعربة البريد والسبنسة ، حتى الآن لا أعرف معنى تلك الكلمة الدالة على هذا التكوين المقفل المهمل ، ورغم أن كافة العربات تابعة ، إلا أن السبنسة تبدو كأنها خارج الخطة مع أنها من صميم التكوين .

القاطرة مَطْلَع ، محملة الظهور ، ضجيجها ، نفثاتها ، زعقاتها ، صفيرها من قريب أو بعيد مثير للكوامن ، محفز على إدراك المجهول وتلويح بالوعد ، كان إصغائي إليها عبر مسافة فاصلة متضفض لأحوالي ، مستدع لمروقي من نخيل وأعملة برق وأسفار إلى ومن طهطا وصحبة أسرتي واكتمالها : كنت أظن المكان الفاصل عثير لما أضمه وأصونه بعيداً عن الأنظار والأسماع ، لكن المسافة الزمنية أوعر ، ذلك أن المكان يسهل إدراكه بالطي ، أما الزمن فمستحيل استعادته إلا بالمخيلة . اختفت القاطرات البخارية الآن ، أحيلت إلى التقاعد منذ زمن بعيد ، آخر ما رأيته

منها في حقول قصب السكر كما ذكرت في ذلك التدوين ، صارت إلى المتاحف ومدن الملاهي وكتب التاريخ ، غير أنها ما تزال تسعى عندي ، عبر مسافات لا يمكن تقديرها ، أو تحديد الأوقات اللازمة لقطعها أو المواضع المؤدية إليها .

تطورت الطرز والأنواع ، لكن تظل القاطرات الأولى حاوية ، مستوعبة، حاوية لكافة ما عداها ، أرى أحدث الآلات في بلدان شتى غير أنى لا أصغي إلى أصواتها ، إنما تنبعث من عندي تلك الزعقات العتيقة التى طالما أثارت الحذر والخشية والرغبة في الوصول ، الصوت الأول يلغي ما يليه ، تماماً كمقاربة الأنثى ، التجربة الأولى تحدد ملامح ما سيتكرر ، كذلك الشروع إلى الأسفار .

صفير

عند منحنى ما ألمح القاطرة السوداء ، لحظة مثيرة ، ينحني الخط لذلك أتمكن منها ، إذ يستقيم تختفي : تتوارى .

أين المنحنى ؟

إنه في مكان ما مؤدي إلى الجنوب، يصعب عليّ تحديده الآن، يظهر عندي خلال بُريقة، لُحيظة، أعرف منذ زمن استحالة إدراك الصفير في جوهره، ذلك أن المتلقي بعيد دائماً ، أما انه راكب داخل إحدى العربات، أو مصغ من بناء يقيم فيه قريب أو بعيد، أو منتظر فوق رصيف أو أمام حاجز يمهد لمرور عابر، قوي: ضاج، مقلقل للخط الساكن الممتد، لا يقترب أحد من مصدر الصفير خاصة أثناء الحركة، ما يصل إلى السمع

مجرد إشارات، دفقات غامضة لموجات غير مرئية في مواجهة الخواء والصمت واللحظات الطاوية حتى للمركبات المتوالية الواصلة ما بين المسافات .

صفير : غامق ، بعيد ، له من الألوان الرمادى .

قريب ، حاد ، إما أبيض أو أسود .

خافت ، له الرؤية فلا يُسمع ، لم يبق إلا وصفه بالحروف وسرحان ما يغيب تماماً مع اختفاء آخر من يحهده ، من استوعبه ذات صباح عند تأهبه للرحيل .

***

اقتفاء

لا أزال طهطا منذ سنوات عديدة ، بالتحديد منذ عرفت السفر بالقطار، درجة أولى مكيفة ، مواعيد لا تتوقف إلا عند المدن الكبرى ، عواصم المحافظات فقط . لا أطيل المكث بسوهاج ، إنما أعبرها قاصداً جهينة .

في تلك الليلة سافرت بدون انتقال، توحدت بوقتى وانتظمت مسافراً عبر جميع المرات التي عرفتها عبر أطواري، تطلعت بالبصيرة صوب قبلي.

أرصفة ، مظلات خشبية ، نوافذ المكاتب ، الحشائش النابتة بجوار القضبان ، واجهات البيوت المتوارية ، لا يمكن التملي منها ، كلها عابرة مهما بدا البنيان راسخاً .

الفرن ، الخبيز ، دخان البوص الجاف ، التراب المشبع بالظهيرة ، الأوز المتهادي ، المتمايل ، الجمال العابرة ، البطيئة ، الأبدية ، تحذير لا أدرى من نطقه على مسمع ..

"احذر غضبة الجمل .. إنه صبور ، حمول .. لكن .."

مدخل البيت القديم ، فيه جئت إلى العالم ، خرجت إلى الكون المرئي، الرحبة ، سعيت إلى درب النصارى ، وماكينة الطحين : بكائها ، صفيرها ذو وشيجة بالزعقات المنطلقة أثناء السفر ليلاً أو نهاراً ، اجتزت يوماً الماكينة، أوغلت بصحبة أبي فيما يليها إلى نخيل كثيف ، صار يشير إلى بعضها ، يعرفني عليها ، يكرر .

"حافظ عليها كما حافظت أنا عليها لا تعرف كم تعبت من أجلها"

ماتت النخلات مني ، الأسباب يطول شرحها ، حاولت الطواف بها من مكمني في تلك الأمسية ، نخلات محددة ، طلت بالفضاءات ، مكان الساقية التي لم يبق منها الآن إلا حفرة متواضعة ، يوماً ما بدت لي هواً مؤدياً إلى مركز الأرض

تنسمت الأطيان، اقتفيت المسير المندثر، لم يؤرق رحيلي إلا تعاقب الآلام على صدري، تندلع فجأة، تسري متصاعدة، بدون أن يلحظ أحد أدس نصف القرص الأبيض تحت لساني، أصغي إلى صوت الطبيب المعالج، كلمات بالنسبة إليه عادية، قالها لكثيرين، لكنها عندي تحديد أو قطع

"وصلتني رسالة من المستشفى الفحص في الثامن من يوليو أما العملية فتقرر لها اليوم التاسع .. أي التالي مباشرة"

التاسع من يوليو

شهر أمامي

ثلاثاء

محطة فاصلة، إما اجتياز تعقبه عودة، أو ذهاب بلا إياب، تاريخ فاصل،

فلأعين ذاتي لفنائي ، إن تحققت الرجعى فذلك كرم ومنة، وإذا اندمجت بأفق الأبدية فإني متقبل، راض بغير مكابرة، الطبيب لم يخف قلقه .

"العملية كبيرة .. ثلاثة شرايين وصمامين .. لكن الأمل في الله كبير .."

فور تحديد الموعد ، صار عندي علامة وصول ، ونقطة سيلتقها رحيلي ، يتنبه الإنسان فجأة إلى ما فات عند بلوغه نقطة متقدمة من العمر ، ياه .. كيف فات هذا كله ؟ ماذا فعلت وماذا تبقى ؟ رحت وجئت في غرفة مكتبي المستطيلة ، تحف بي الكتب ، كثير منها لم أقرأه بعد ، وعديد مما قرأته أتمنى إعادة اكتشافه ، لكن .. الوقت محدود ، يكفي ما بددت ، حتى لو نجوت وعبرت الخط الفاصل فالسنوات موقوتة !

التاسع من يوليو ، ثقل حظ عليّ ، وعي حاد بسفري المفرد ، دائماً في الرحيل أفضل مقعداً وحيداً إلى جوار النافذة ، كل ما أطالعه من بلدان وعمارة وجسور وأشجار وحقول ممتدة يمر بداخلي وليس خارجي ، كافة المفاجآت والمواقف الدالة ، أقف في مواجهتها بمفردي ، طائعاً ، مختاراً .

ما أسرع طي الأيام لما جرى . كأن السفر إلى جهينة ومنها جرى بالأمس مع أن اثنين وأربعين سنة ولت منذ أن اتجهت الأسرة مكتملة إلى قبلي . بالضبط .. عام أربعة وخمسين . نعم .. ترددت مرات على البلدة بدءاً من منتصف الستينات ، لكن لوحدي .

قبل أكتوبر عام ثمانين وتسعمائة وألف ، اختفى أبي لعدة أيام ، لم يخبرنا بالجهة التي قصدها ، وفي السنوات الأخيرة اعتدنا منه ذلك . بعد عودته يخبرنا أن زيارة قام بها إلى سيدي أحمد البدوي بطنطا ، أو إلى

أقاربه بالإسكندرية : إنهم سادة الميناء والممسكين بأسراره ، أو اتخذ وجهته إلى دير مواس لزيارة الباشجاويش أحمد حسين الذي أنقذه طفلاً ، عندما حال بين عمه وإغراقه في الترعة حتى يرث نصف الفدان الذي آل إليه ، آواه عنده في النقطة وآمنه من خوف ، أخذ على العم المواثيق أمام شيوخ البلدة ألا يتعرض لليتيم الوحيد بسوء ، منذ ذلك الحين صار مصدراً للحنين المفتقد ، خاصة أنه لم ينجب من امرأته وكان اسمها جليلة .

آخر سفر للوالد كان إلى قِبْلي ، إلى جهينة ، مسقط الرأس ، الصور الأولى والحنين المحض : طاف بالأقدمين ، حتى الحريم دخل عليهن البيوت، صافحهن وطلب السماح ، ثم عاد إلى القاهرة ، ولم تطل إقامته في الكون المنظور إلا أسبوعين . والآن بعد سبعة عشر عاماً عن رحيله الأبدي ، أثق أنه قصد جهينة ليرقد في ثراها ، هذا ما تمناه وحدسه ضاغط بالنهاية ، لكن الأمر علق قليلاً .

بعد استيعابي ما أبلغني طبيبي به ، رحت أطيل النظر إلى العلامة الفارقة، تباعد انزعاجي انبدني منفسحاً لرضا لم أعرفه وسكينة مستجدة عليّ ، ولم يكن ذلك إلا بداية إيغالي في هذا الحال الغريب الذي فصلته في تدويني المعنون "الخطوط الفاصلة" .

التاسع من يوليو

في انتظار حلوله بدأت أتطلع إلى تشعبي وترتيب أوضاعي ، الطواف بالأماكن والمواضع الحميمة ، ورغم طوافي وأسفاري شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً إلا أن الشوق كله تعلق بموضعين :

الأول : مساراتي الأولى في القاهرة القديمة .

حارة الطبلاوي ، ناصية شارع قصر الشوق ، شارع حبس الرحبة ، شارع أم الغلام ، بناية مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، ميدان بيت القاضي ، محطة مصر ، رصيف قبلي ، قطار الثامنة أصبح ملخصاً لي هذه المواضع ، وذلك السفر .

مرة . قصدت الأقصر بصحبة أدباء من صحبي بالطائرة ، ومن هناك اتجهت شمالاً بالقطار ، نزلت سوهاج قادماً من قبلي وليس من بحري لم أقل لامرأة خالي أو أي إنسان من أقاربي إنني جئت بالطائرة إلى الأقصر ، خجلٌ ما حاشني ، كيف أجيء إلى قبلي بالطائرة ، هذه الوسيلة التي لم نسافر بها قط إلى جهينة .

خلال رقادي تركز استدعائي لأرصفة الثامنة صباحاً ، والثانية عشر ظهراً ، أحاول احتواء ما تبدد منها عبر فراغات لا قِبَلَ لي بإدراكها أو تحديد أبعادها .

كانة دوافعي ليست وافدة ، إنما نابعة ، ليست واهية ، إنما ضرورية لازمة، هكذا خرجت من القاهرة إلى سوهاج في السابعة والنصف ، كيف أقصد الخط الفاصل بدون إطلالة على جهينتي .

لم أنتبه إلى المرور بمدينة سمالوط ، رغم تحفزي ورغبتي في احتواء القصر القديم أثناء المروق ، منذ سنوات قرأت لافتة سوداء بحروف بيضاء فوق المدخل تعلن عن جمعية للرعاية الاجتماعية ، ثم قرأت أخرى بعد عامين تؤكد أنه مقر للحزب الوطني . منطلعاً ، قصياً ، استنفاري عند

اقترابي من سمالوط يهن ، تتسلخ خيوطي العالقة : أتأمل صفحات في كراسة دونت بها بعض خواطري أثناء إقامتي ثم يلفت نظري إلا غرابة خطي عني ، كأن من كتب شخص آخر لا يمت إليّ ، أقرأ الأحداث وأسماء الأشخاص ، يعسر عليّ استدعاء ملامح البعض ، تتداخل عندي الوقائع ، تتلاشى لحيظات ، أنتبه إلى بعد الشقة ، وطول تحملي ، وكثرة ما عاينت وما عانيت ، ثمة عصرية مارقة ، حبوري أمام سينما سمالوط : إعلان عن فيلم هندي يثير ضجة كبرى ، "سانجام" .

وحدتي عند آذان المغرب ، الإفطار الرمضاني ، أرثي غربتي عن أهلي ، أتعلق باندفاع القطارات كلها التي أعرفها ، الساعية ، لكنني لا أفارق موضعي ، فأنحني متفهماً لحزن الصعيدي النائي ، المنتزع من نجعه أو كفره أو قريته من أجل الرزق .

تمثل عندي لحظة مجهولة ، منبتة الصلة بما قبلها وما بعدها ، استيقاظي متعباً ، أرقد في موضع ما ، أجهله .

تطلعي إلى قضبان ممتدة ، يؤطرها صمت عميق ، مجدبة ، خالية من الرواح والمجيء ، تنبت الحشائش الطائشة ، العشوائية ، تتكاثر مع السكون، المرور مؤنس ، باحتكاك القضبان والعجلات يكتمل كل منهما ، يتجدد اللمعان ويسري شيء ما . الخطوط المهجورة كالحة مثل البنايات الخالية ، تسرح العناكب والفئران والهوام عبرها آمنة .

القطارات مؤنسة ، ظهورها ضاج ، بليغ ، وغيابها موحش ، وليس هذا إلا صدى لذاك ، وما يفصلهما تلك الأوقات .

***

نقطة

عندما تتحدد النهايات لا يمكن للإنسان استرجاع كافة ما ولّى منه ، أو التوقف عند سائر ما كان ، إنما ينتقي ، لا يقرر ، تتداخل عوامل شتى بعضها بيِّن ومعظمها خفي لتتحدد له محطات رئيسية ، واضحة الملامح ، تتلاقى عندها الجهات وتفترق : غايات وبدايات ، أرصفة متلفتة : مرسلة ، تماماً مثل أسلاك البرق ، أرصفة نشطة ، أخرى هادئة ، ممتدات ، استسلام الفلنكات لمصيرها : خرسانية أو خشبية ، انتظام المسامير الغليظة ، ثباتها ، حركة السيمافور غير المحسوسة ، ترى .. لماذا تعلق بها عبد العيط ؟ ، ماذا كان يرى في استقامة الذراع المعدنية أو انحنائها ، أو تدليها إلى أسفل؟ لماذا ينتفض محيياً والشخوص بعينيه ، ذاهلاً عن كافة ما يحيط به أو يلحقه، حتى إذا صفعه أحدهم على قفاه فلا يرد : مع أنه في الأحوال العادية يمكنه أن ينقض على الفاعل مفترساً ، فاتكاً أياً كانت هويته ؟

أستعيد جمعاً كثيفاً ، حشد رأيته عبر شريط إخباري مصور ، يقف في مواجهة شرفة قصر ، يقف الامبراطور خلف جدار واقي ، لكنه شفاف لا

يحجبه عن شعبه ، إلى يمينه زوجته ، إلى يساره كبير الموافقين بحلته العسكرية الامبراطورية ، كهل ، قوي الحضور ، متين الانبعاث ، يرتدي قفازاً أبيض ، يرفع يده بتحية يسيرة ، موجزة ، انفعال هادئ يؤطر ملامحه ، تركز آلة التصوير على عجوز بادي التأثر ، شاخص إلى أعلى ، يرفع يده بالتحية وكأنه موشك على بداية عرض عسكري ويلتمس الإذن .

هل يحتاج كل إنسان إلى نقطة ما في الفراغ ؛ ليتعلق بصره وبصيرته بها ؟ ، إلى علامة يتخذها نقطة ارتكاز ومنطلقاً ومصدر تحفيز ؟

ربما .. ربما يجدها في وقفة زعيم ، أو تلويحة فنان شهير ، أو نجم بادي عند الأفق ، أو علامة مميزة هنا أو هناك ، أو لون معين ، أو حركة ما ..

لا بد أن عيده سيمافور كان مطلعاً على ما لم أقدر على الإلمام به زمن إقامتي في سمالوط ، كذلك العجوز المتطلع صوب الامبراطور والدموع ماثلة في عينيه ، والإجلال في وقفته .

لابد أنهما أفضل حالاً مني ، أعرف الخط الفاصل الآن ، التاسع من يوليو ، لكنني لا أعرف ولا أدري شيئاً عن نقطة بعينها يمكنني أن أشخص إليها وأتعلق بها ، وإذ انحني عنى ما أكنه يراودني شبه يقين ، أنني حين النقطة التي أبحث عنها !

***

مواعيد

تغيرت الأسماء لكن القصد واحد ، الثامنة ، الثانية عشر ، الرابعة بعد الظهر ، الحادية عشر ليلاً ، الصحافة ، النوم ، "الشبح" "الفرنساوي" "الأسباني" "السياحي" ومن قبل "المجري" ، عندما لاحت القاطرة رمادية اللون ، بدا تقدمها بطيئاً ، غير ذي هيبة ، رغم ضخامة الآلة وتطورها ، أين سحابة الدخان التي تنتشر إلى الخلف متجاوزة طول المركبات إلى فضاء القرى ، إلى خلاء لا يبين ، أين نفثات البخار الأبيض ، من الأنابيب الرأسية ، الصفير المتصل ، المتقطع ، المنذر ، الموحي ، كذلك السحابات الصغيرة المنبعثة من خلال العجلات ، عجلات حديدية واسعة القطر ، أخرى أصغر ، أذرع معدنية حركتها إلى الأمام ، إلى الوراء . أين الشقة العتيقة التي كانت توغل إلى داخل المحطات وتدع المكافة يتراجعون والقلوب تسرع .

منذ آخر سفرة بصحبة الأسرة لم أركب إلا بمفردي ، حتى لو كنت في جمع أسعى إلى الانفراد ، أتطلع من النافذة ، الأفق الدائري ، أعمدة البرق،

إذا اتجهت إلى الجنوب أتساءل : هل تبدلت ؟ ، هل زاد عدد الأسلاك ؟

لا أدري ، أميل مدققاً ، محققاً ، لعلي أرى أو أسمع قبساً من أصداء بعيدة عندما سافرت من القاهرة إلى جهينة جنيناً في رحم أمي عمره سبعة شهور ونصف ، ترى .. هل يمتد الطريق عندي ، أم أتفرق عليه ؟ هل يؤدي إليّ أم أتوزع نثاراً عبره ؟ .

***

راكب !

متى بدأ هذا الحوار ؟ هل غفوت قليلاً ؟ ، المفتش مرتدياً الزي الرسمي للهيئة يميل قليلاً ، محدقاً في رجل يصعب تحديد عمره ، يرتدي جلباباً رثاً ، حافياً ، يمسك بقجة بيده اليمنى وتذكرة سفر باليد الأخرى .

"كيف جئت إلى هنا ؟"

يقول الرجل بصوت محايد ، هادئ ، لا أثر عنده لخشية

"ركبت القطار .."

يخفض المفتش رأسه قليلاً ، مبدياً الصبر وطول البال .

"من أين ؟"

"من المحطة !"

"أي محطة ؟"

"محطة القطار .."

"إلى أين ؟ .."

"مسافر .."

"أعرف .. كلنا هنا مسافرين .. المهم .. أنت إلى أين ؟"

"قاصد كريم .."

تتغير لهجة المفتش ، توحي بنفاد الصبر

"هات التذكرة .."

يدقق ، يقلبها ، ينتبه الركاب إلى ما يجري ، يلزم كل منهم مقعده الوثير ، مهما تدهور مستوى الدرجة الأولى الممتازة مكيفة الهواء فإن مظهرهم يختلف عن ركاب الدرجة الثالثة ، كذلك نوعية الحقائب التي يحملونها ، لا يتخيل أحدهم ظهور مثل هذا الرجل رث الهيئة ، كيف وصل هنا ؟

"تذكرة قديمة .. أين بطاقتك ؟"

"حاضر .."

ثمة اهتزاز وامتثال تام في نبراته ، ينحني إلى الأمام أثناء دس يده في صديريته ، يبدو أنه أخيراً أمسك بها ، يخرجها ، يقدمها إلى المفتش ، لكنه ممسك بها ، قابض ، بعد جذبها يطيل التمعن فيها .

"أنت من سوهاج وهذا القطار متجه إلى مصر .."

يطغى عليه هلع مفاجئ ، وكأنه اكتشف فجأة مقدار كارثة محققة .

"يا نهار اسود .. أنا قصدي قبلي .. قبلي .. رحت في داهية .."

يواصل بصوت دامع ، شاك ، راج .

"ضحكوا عليَّ .. ضحكوا عليَّ .."

بعد إشارة من المفتش طويل البال ، يشير إلى جنديَّ شرطة من حراس القطار العلنيين ، يحيطان به ، يقودانه ، يخرجان به ، رغم الصمت إلا أن

فراغ العربة تغير ، عندي سرى حزن ما ، كيف أساعد هذا الرجل الذي سيتعرض لعمليات استجواب قاسية ؟ ربما اعتبروه عيناً للجماعات المتطرفة التي تهاجم الحركة السياحية .

هل يحق لي التدخل ؟

لا أعرف ما يمكن أن يتهموه به ، لا أعرف العقوبة ، كل شيء يمكن توقعه ، إنه في محنة ، كيف أتقاعس ، كيف أتأخر ، رغم استسلامي لحالتي الوداعية تلك بعد أن مررت بالمنحنيات والنخيل والنواصي والمقاعد التي لزمتها بصحبة أبي ، بالعكس .. دافعي يقوى .

أقوم ، أجتاز ما بين العربتين ، ضجيج بدون تنميق منبعث من الاحتكاك الصارم ، الحاد بين العجلات والقضبان .

لافتة صغيرة مكتوب عليها "ناظر القطار" ، ها هو ، يجلس محاطاً بمفتش القطار ، والحراس الرسميين ، واثنين من السريين ، يرتديان الملابس المدنية ، وعامل من المقهى .

المفتش يمد علبة سجائره

الحارس العلني يربت كتفه

العامل يرفع كوب شاي نحوه

كان مستمراً في حكي أحداث لم أصغ إلى بدايتها ، ولم أتساءل عن مسارها ، مضيت إلى نهاية العربة ، عند عودتي توقفت لحيظات ، المفتش يعانقه ، الحراس يذرفون دمعاً ، أحدهم يمس كتفه بحنو ..

***

طاقة

من يرى التزاحم في المحطة الرئيسية لا يمكنه توقع خلو القطار قريباً ، نزلت دوماً وقصدت محطة القطارات المتجهة إلى الشمال مباشرة ، في القاهرة منطلق واحد للمتجهة إلى قبلي أو بحري ، لكن في العواصم الأوروبية الكبرى أكثر من محطة ، لكل جهة بدايتها المنفردة ، كنت حذراً ، المحطات أماكن مفضلة للصوص وباعة المخدرات والشواذ والتائهين ، في روما كانت حواسي مشرعة ، مستنفرة ، كان موعد القطار في الخامسة والربع ، إذن .. أمامي ساعة ونصف ، الحرارة مرتفعة ، الرطوبة غزيرة ، اضطررت إلى شراء زجاجة ماء بحوالي عشرة جنيهات مصرية ، استفسرت أكثر من مرة عن الرصيف الذي سأركب منه ، أي خطأ ما سيدفع بي إلى جهة أخرى أو سيكلفني جهداً ، إنني في المرحلة الحرجة من سفري ، أمتعتي كلها في الحقيبة ، جواز سفري في جيبي ، نقودي ، لم استقر بعد في فندق ، لم أرتكز إلى مقر ، دائماً أتمنى انقضاء هذه المرحلة بسرعة ، أينما وليت وجهي في مصر . فإنني أمضي بثقة ، غير هياب ، لا أخشى شيئاً ، خطواتي راسخة ، نظراتي سديدة ، أعرف مقصدي ، لكن في

الأقطار النائية أدخل دائرة الحذر ، أتوقع الأذى خاصة إذا كنت منفرداً ، أتعمد توزيع بطاقات تحمل اسمي باللغة الإنجليزية ، وعناوين بعض الأصدقاء في البلد الذي أنزله وأرقام هواتفهم ، أشد ما يرعبني احتمال الدوار وفقدان الوعي .

العربة مقسمة إلى قمرات صغيرة ، يضم كل منها مقعدين مستطيلين متواجهين ، مكسوة بالجلد الأخضر الغامق ، تذكرة عربات الدرجة الأولى والثانية العتيقة ، لم أعرفها إلا في منتصف الستينات ، في مراحلها الأخيرة قبل اختفائها ، كانت وثيرة ، يَشِي خارجها مع داخلها ، مقاعدها الجلدية ذات لون بني أو زيتوني ، في داخل كل قمرة صورتان متواجهتان أو لوحتان من رسوم الفنانين الأجانب الذين وفدوا إلى الوادي لمشاهدة المعابد الفرعونية والمقابر والتماثيل . النوافذ محكمة الإغلاق ، والنظافة بادية ، والمراوح مصوبة إلى الفراغ المحدود لتهدئ قيظ الصيف . أثناء سفرنا إلى جهينة : كانت عربات الدرجة الثالثة في المؤخرة ، بعد عربة البريد أو ما كان يطلق عليها السبنسة ، الدرجة الأولى ، مكتوبة بخط ثلث متناسق ، عربة واحدة فقط . يليها عربة الأكل ، لسنوات طويلة كانت التسمية غامضة إلى أن مررت بداخلها واطلعت على مناضدها ومقاعدها وحركة القائمين على الخدمة بها ، وحملهم الأطباق وصواني الطعام والأكواب المملئة والفارغة بدربة ومهارة عالية ، حتى زمن تدويني هذا أقتفي أثرهم بالنظر إذ يقطعون العربات متفادين الميل وذبذبات السرعة ، خاصة عند عبورهم إلى العربة التالية ، أتابع بدقة وتأن . استدعي الفتية من راكبي العجلات ، حملة أقفاص الخبز فوق رؤوسهم ، يسندونها بيد ، والأخرى تضبط حركة المقود

عبر زحام الطريق ما بين ترامويات ومشاة متمهلين متسكعين وطرف الجلباب بين الأسنان ، لم أشهد هذا إلا في دروب وشوارع مصر .

يلي عربة الأكل الدرجة الثانية الممتازة ، أي المكيفة ، ويلحق بها الثانية العادية . ثم عربات الثالثة التي عرفناها ونحن صغاراً ، وكان تدرجنا طبيعياً وفي موعده ، فلم أنتقل إلى الثانية إلا بعد بدء أسفاري من خلال عملي .

رغم ارتباط المركبات بوثاق متين ؛ إلا أن شعورنا بالمسافة كان شاسعاً ؛ ليس مألوفاً تردد ركاب الثالثة على الثانية أو الأولى ؛ كان للمفتش هيبة وللمحصل مكانة ، كذلك الشرطي المختص الواقف بانتظار تسلم المشاغبين والمتهربين من دفع قيمة التذاكر عند أول محطة .

في رحلة العودة ، عند الصعود شمالاً تتبدل الأوضاع ، عربات الثالثة تلي القاطرة مباشرة ، الأولى في المؤخرة ، في النهاية التي يعقبها فراغ مولي، عربة الطرود والحيوانات والمساجين .

خلال اندفاعات القطار الإيطالي السريع ، استحضرت أخرى عتيقة ذات رصانة ، كلها تجري وتتقاطع عندي .

***

الفراجة

بعد الوقفة الثانية خف الزحام ، خلت الممرات من الواقفين ، صرنا إلى انفراد الحيز الضيق ، ستة ، ثلاثة في مواجهة ثلاثة ، لا ينتمون إلى جنسية واحدة : هكذا خمنت من اللغات المتبادلة والمظهر ، هي وحيدة ، حقيبة أغراضها إلى جوار قدميها ، راحت في إغفاءة منذ دقائق ، يطالعني زغبها الذهبي ، يتضوى هادئاً من ملامسة فخذيها التيراويين . إنها المرة الأولى التي تقع عيناي فيها على تلك البشرة الزاهية ، صفراء صهباوية ، ليست صفرة الجفاف ، والذهاب ، إنما صفرة التفرد والقدوم ، ترتبط عندي بالزمن العباسي ، بقصر عتيق قائم عند ضواحي بغداد ، وقوم يتوالدون ، يسمون إلى سهر وراح وحسان واكتمال صحبة . لماذا .. ربما لأني قرأت يوماً وصفاً دقيقاً لمثلها في مخطوط قديم ، ربما جزء من الأغاني للأصفهاني ، أو النشوار للتنوخي ، لا يمكنني التحديد أو التخمين ، فما لا يمثل في ذاكرتي لا أدونه وإن كنت أجتهد وأسعى ، في البداية تكون الحدود واضحة والفواصل ناصعة ، مع توالي الأيام وتداخل السنوات واكتمال العقود تمتزج المشاهد ، وتبهت الملامح ، تتآكل الأسماء ، تنفصل عن أصحابها

وهذا أول علامات الفناء ، تتبادل المرئيات مواقعها في الذاكرة .

أستعيد دهشتي ، محاولتي استيعاب هذا اللواء القادم من الصخرة ، لم يعد الأصفر منذراً بالشحوب وقرب الانزواء ولواح العدم ، إذ يقترن بالأنثى يصبح دليلاً على تفجر الحياة ، ومثيراً للكوامن .

اندفاع متصل ، حيز ضيق غير أننا متباعدان ، كل منا قصي عن الآخر ؛ كان استرخاؤها حاضاً على الرغبة والشفقة معاً ، يبدو الإنسان مستسلماً ، واهناً ، عند استغراقه في النوم على مرأى من الآخرين ، غير أن انفراجة فخذيها وطلاوة بشرتها كانا محرضين لـلكوامن النازعات ، على سهل احتويتها بالنظر والمخيلة ، فاحتوى الحس على مالا يمكن بلوغه في الصحو والسكون ، إذ احتوانا الاندفاع الليلي والأنفاق المحفورة في الجبال الصخرية ؛ يتبدل الصوت الضاج عند اجتيازها ، كـذلك الجسور الحديدية الواصلة بين حافتين ، ضفتين بعيدتين ، مشرفتين .

***

رقيقة منغارية

يمتد الخط المفرد مجاوراً لشاطئ البحيرة المنغارية ، أحياناً يحيد لكن لا يحول البُعد دون رؤيتها ، لا يستمر ، يعود الخط الحديدي لينتظم إيقاعه في رتابة متناغمة ، ما بين العجلات والقضبان ، على الخط المفرد يتكرر الانتظار في المحطات الكبرى . خلال أسفارنا الأولى جرى مثل ذلك . خاصة بعد أسيوط ، كان الخط مفرداً حتى أسوان ، إذ تطول الوقفة يقول أحدهم :

"فيه مقابلة .."

عندما نصغي إلى الصفير والوشيش والطرطقة وهدير المراجل ، ينتظم صوت العربات وبعد انتظار وجيز نسري حركة ، كثيرون لا يستطيعون في البداية تحديد مصدرها ، ذلك الذي يحتويهم ويستقرون داخل إحدى عرباته ، أو المواجه لهم ، الذي يرونه بالمنظر ؟

لا بد من تبادل طرفي الخيزران ، لا يضغط السائق مفرجاً عن البخار إلا إذا تم الترتيب ، أمر محكم وإجراء صارم ، يعني تبادل الأطواق خلو الطريق المفرد .

لم يكن باعث دهشتي وجود مثل هذا الخط الوحيد في بلد أوروبي ، لكن الأرصفة الواطئة ، لا تحاذي ارتفاع أبواب المركبات ، إذ يتم التوقف يبرز من الباب سلم مائل باتجاه الأرض : ينزل أو يصعد عليه الركاب ، يرن الجرس ، يغلق الباب ومع حركته يتوارى الدرج المعدني .

أي محطة في مصر لها رصيف مرتفع ، قائم : حتى لو مهملة أو منسية، دائماً الرحلات الأولى مرجعي وقياسي ، خلالها تتشكل الأسس التي يتم من خلالها تلقي المرئيات ، وتشكيل الكينونة الجسدية والأعطاف النفسية ، والرقائق غير المنظورة ، كافة ما يلي ذلك ترديد ورَجْع بعيد . في البدايات تتحدد المسارات ، تماماً مثل الخبرات الجنسية الأولى ، إنها تؤطر الأوضاع المفضلة ، وطرق الاقتراب الميسرة ، والأصوات المستقرة ، والتأوهات الخاصة .

نهاية الخط عند الطرف الآخر للبحيرة ، نزلت ، عبرت السور القصير المؤدي إلى الشارع ، مبلط بحجارة عتيقة ، تماماً كما كانت حواري القاهرة في سنيتي الأولى .

طريق صاعدة ، واجهات البيوت الهنغارية ذات ألوان صفراء وبيضاء : أفاريز بارزة تتقدمها ، منقوشة بزهور غامضة وأوراق يصعب اقتفاء أصولها أو تحديد أسمائها . النوافذ مستطيلة وسائر النوافذ مسدلة الستائر . المداخل المؤدية مغلقة ، مقابض على هيئة أيدي مضمومة ، رؤوس حيوانات، بعضها بارز الأنياب : يهدد لكل مقبل أو متقرب ، لماذا جئت ؟

لماذا قصدت هذه المدينة ؟

ما اسمها ؟

أي مرة أخطو فوق شارعها المائل هذا ؟ في زيارتي الأولى لهنغاريا أم الثانية ؟ لا يمكنني التحديد أو القطع .

ما اسم المدينة ؟

لا أعرف

لم يتبق في دائرة وعيي إلا خطواتها ناصعة الوضوح في مسمعي ، كذلك ذبذباتها ، مويجات جسدها تطغى على ما عداها ، ضجيج قطارات وطائرات مقلعة أو دانية وجرارات وآلات توليد طاقة ، توارى هذا كله ، بل اندثر ، صدا سميها .

بعد خروجي من المحطة اتجهت صوب هذا الطريق الصاعد في ذهابي ، المائل في عودتي ، بعد عدة خطوات فتح باب راسخ له صرير ، اندلعت منه، استدارت مباشرة متجهة إلى أعلى ، لم تعن بإلقاء نظرة تجاهي مع أن المسافة الفاصلة قصيرة ، وليس في الشارع سوانا .

لا بد أنه يوم أحد ، ربما سبت ، أو أجازة ما ، كافة المتاجر مغلقة ، فوجئت بفراغها تتقدمني ، وغزارتها الأنثوية تغمرني ، مشرعة القوام كيبرق ، معلنة الظهر ، مرتوية ، ملتفة ، مكتملة السياق ، كلها مترتبة على بعضها ، شديدة التناسق ، لم أر ملامحها ، لم أتجاوزها ، لكنني لا أستعيدها إلا وتمثل ملامح أنثى واضحة رغم أني بقيت في موضع التابع ، فضلت أن أقتفي ، إيقاعاتها متوالية ، تفيض على الفراغات والمداخل والحنايا من خلال تكات حذائها الناتجة عن تلاقي المكعب النحيل المدبب

الموسَّق بالحجارة الصلدة ، المؤدية ، تتسرب الأصداء إلى الفراغات العُلى والطبقات التحتية ، إلى ما أعرفه وما لا أدركه مني ، أنفاس متلاحقة ونظرات راكضة في أثر مؤخرتها المتحدية ، الريرابة ؛ كلها ضاجة ، حتى أنها ما تزال ماثلة ، مترددة على رغم توالي الأيام وتباعد المصدر .

أنفاس متلاحقة ، ونشوة في الحضور ، توالى خطوها يغطى على ما عداه ، ينسب سائر العناصر إليه ، السرعة التي جئت بها ، الوقفات ، احتكاك العجلات بالقضبان ، ظهور مياه البحيرة واختفاءها ، الأشجار ، النباتات البازغة ، البيوت المتناثرة ، ذلك الصباح ، ذلك المساء ، عند المحطات الرئيسية والفاصلة والمؤدية ، يصير الحضور الأنثوى منجياً ومهدئاً ودائماً أسمى !

***

محطات سويسرية

اندثرت لحظة وصولى إلى المطار السويسري ، لكن بقى وجه السيدة الشابة التي كانت في انتظاري ، والفتاة التي تحدثت إليها في القطار ، حضور الإنسان في لحظة ما يثريها ويطيل أمدها في الذاكرة ، رصد الأشياء بمعزل عن البشر لا يُعمر طويلاً عندي .

كنت متوثباً ، متطلعاً ، راغباً في المعاينة، من القاهرة سلمتني ممثلة المؤسسة الداعية ملفاً يضم أوراق تحركي من لحظة وصولي إلى لحظة مغادرتي، كل التفاصيل معدة بدقة صارمة، حدثت صاحبية لي قائلاً إن الانضباط في الساعات السويسرية ليس إتقان صناعة إنما فلسفة ونظام حياة!

خارج دائرة الجمرك تنتظر سيدة ترتدي معطفاً أسود تحته قميصاً أحمر وحذاءً أبيض وترفع لافتة مستديرة مكتوب عليها اسمي هكذا 'AL GHITANY GAMAL' تصحبني من مبنى المطار بعربة أجرة ، تدفع من ، تغادرها بعد سبعة عشر دقيقة أمام محطة القطار ، تنتظرني حتى أستقر

داخل عربة الدرجة الأولى موعد التحرك الواحدة إلا عشر دقائق : الوصول إلى بازل في الثالثة إلا أربعة وعشرين دقيقة : وذكرت بعضاً من أوقاتي في مؤلفي "أسفار المشتاق" . من المطار إلى المحطة تطلعني مرة أخرى على الأوراق المتضمنة لحركتي طوال أيام إقامتي العشرة ، سلمتني بطاقة حمراء، درجة من الأحمر الصريح ، المباشر ، أعرفها وأخشاها بقدر ما أفضلها ، ترتبط بالحالة السويسرية ، العلم ، الصليب على شركة الطيران، على المداخل والمحال ، وسائر عربات القطار الخضراء القاتمة أو الرمادية : بادية الجهامة من الخارج ، وثيرة ، مضيئة من الداخل . تقول إن هذه البطاقة تعطيني الحق في ركوب أي قطار يتحرك داخل الاتحاد السويسري لمدة خمسة عشر يوماً تبدأ من اليوم ، كما يمكن لي ركوب الحافلات النهرية والجبلية والمعلقة ، كل ما يمت إلى وسائل المواصلات العامة عدا الطائرات ، تتبع توضيحها بقولها إن الحاجة لن تقتضي تجاوز البرنامج المحدد ، كل الحركة ستكون بالقطارات .

تتكلم بتهذيب ، إيقاعها هادئ ، مخارج ألفاظها محددة ، غير أن انتظامها وحيدتها بادية ، لم تفارق مكانها أمام الباب الذي صعدت منه إلا بعد صعودي وإيماءتي قبل أن أقطع الممر إلى المقصورة المحددة .

إلى جوار النافذة تجلس فتاة ، قميص أبيض من الصوف ، عالي الياقة ، بنطلون جينز رمادي ، يدان متلاصقتان ، مبسوطتان ، أحياناً مدسوستان بين ركبتيها ، عندما تحرك القطار بهدوء ناعم ، يبدو احتكاك العجلات بالقضبان كأنه آت من بعيد ، كنت أصغي تمهيداً للمقارنة ، قطارات قديمة تسعى في الذاكرة حيناً تبدو ثم تختفي ، أو أخرى بادية ، لكن يبدو داخلها

ولا أقدر على استعادة نقاط انطلاقها أو محطات وصولها ، لا شك أن الصوت أقل خفوتاً ، لا بد أنهم عالجوا الضجيج إما بإحكام نفاذ الصوت من الخارج إلى الداخل أو يتعلق الأمر بنوعية العجلات ذاتها .

ما بين ملامح الشابة الجالسة أمامي ومشاهد الخارج المتراجعة إلى الخلف بسرعة القطار تردد بصري ، جمالها هادئ ، أمومي ، فياض بالمودة الكامنة، بيوت متباعدة ، خضرة مصقولة ، منظمة ، الأشجار على مسافات متساوية، أبحث عن ملمح سويسري لعلي أرصده ، ماذا أنتظر ؟

لا أعرف .

تتلاقى نظراتنا ، أبتسم لتجيء المجاوبة هينة ، سلسلة ، ميسرة . الحيز المؤطر لنا مساعد : بشكل ما نشترك في عناصر بادية ، التواجد في مقصورة محدودة ، وبابها الوحيد مغلق علينا ، تسري المركبة بنا إلى اتجاه واحد ، ما يستعصى على التفسير أو التحديد ربما أكثر ، ربما يشكل هذا بداية صلة عابرة أو تمهد لتغيير مصائر ، لو جرى اللقاء في صالة فسيحة ، أو ساحة مكشوفة لأصبح التواصل وعراً والتماس غير ميسور ، لكن التواجد في المكان المحدد ، والسعي إلى وجهة واحدة يقرب . نعم .. إنها سويسرية : تعمل مدرسة ، تعيش في زيوريخ ، وتمضي إلى بازل لزيارة أمها التي تعيش وحيدة .

بازل .. إنني ماض أيضاً إلى نفس المدينة ، إنها المرة الأولى في سويسرا وربما العشرين أو الواحد وعشرين بالنسبة للقارة الأوروبية ، نعم .. نعم ، لم يمض على وصولي إلى زيوريخ من القاهرة إلا ساعة ونصف تقريباً .

إنها تتمنى زيارة مصر ، رؤية الأهرام ، الإبحار من الأقصر إلى أسوان ومشاهدة شروق الشمس يومياً من النيل ، تعرف أسماء الأماكن من الأفلام التليفزيونية وكتابات الصحفيين الذين ذهبوا إلى هناك .

إنها مدرسة متخصصة في التدريس للأطفال المعاقين ، المتخلفين عقلياً ، نعم .. إن ذلك مثير ، والتعامل معهم أيسر إذا أدرك الإنسان ظروفهم .

إنها أم لطفل واحد ، لم أسألها عن أبيه ، منذ سنوات أعرف أن الطفل يمكن أن يأتي بدون زواج ، ويحق له ما يحق لغيره .

قالت إنها تحب عملها ولكن صعوبات الحياة في ازدياد ، خلال العامين الأخيرين ارتفعت الأسعار ولم تتحرك المرتبات ، طبعاً .. يمكنها أن تذكر المرتب ، إنها تتقاضى ثمانية آلاف فرنك ، يحتاج الإنسان إلى حوالي ستة آلاف ليعيش حياة معقولة ، إنسانية ، المشكلة أن الأسعار والإيجارات ترتفع بسرعة ، أبديت تعاطفاً ، أكدت على ضرورة تحسن أوضاع المرتبات بالقياس إلى الأسعار ، في نفس الوقت أجريت عملية حسابية سريعة ، مرتبها في شهر يعادل عشرين ألف جنيه ، تقريباً .. مرتبي في عامين .

ابتسمت ، أصغيت ، اقتربت مني ، لا أذكر ملامحها أو اسمها رغم مثول جلستها ، اتكائها إلى حافة النافذة العريضة ، شفافية الزجاج ، من خلالها تتوالى الموجودات ، أستعيد فقط قعدتها المسترخية ، الساعية إلى الود ، كأني أراها من مكان مرتفع ، يحتوينا القطار المتدفق بسرعة ، أكثر من أي أخرى عرفتها حتى هذه اللحظة .

قبل دخولنا محطة مدينة بازل وقفنا قليلاً في الممر ، أفسحت لها ،

اتجهت صوب الباب ، لم تكن تحمل إلا حقيبة صغيرة ، نزلت على مهل ، لم أنس مراجعة برنامج الزيارة المفصل ، مكان انتظار صاحبي أمام القاطرة ، أول الرصيف بالنسبة إليه ونهايته عندي ، عندما نزلت إلى الرصيف فوجئت بضخامة المحطة ، وقلة عدد الركاب سواء المغادرين أو المنتظرين ، يمكنني رؤية المدى كله ، مشيت باتجاه صاحبي الذي كان يقف في المكان المحدد بالبرنامج المطبوع ، عرفته من قامته الممتلئة قليلاً ، والمتوسطة ، أسرعت الخطى رغم ثقل حقيبتي ، لكنه لم يتحرك باتجاهي ، منذ عامين لم أره ، جاء إلى القاهرة في زيارة سنوية تبدأ قبل رأس السنة الميلادية ، وثاقي به قديم ، يرجع إلى أول الستينيات ، مع بدء ترددي على الندوات الثقافية ومقاهي وسط المدينة ، إنه هادئ ، متزن ، أكن له محبة واحتراماً ، وفي حضوره أطمئن وأستعيد الأيام الرواسخ التي تبدو من بعيد آمنة ، مستقرة ، إنه واحد من قلة أصغي إليهم باهتمام ، وأقتنع بما يمكن أن يبديه من ملاحظات ربما لا أتقبلها من غيره ، حتى وإن قيلت برقة .

عندما صحت ، أشار بأصابعه المضمومة بما يعني خفض صوتي ، كان عناقه محايداً ، هادئاً ، ورغم تحفظه البادي لم يخفف ذلك من انفعالي برؤيته هنا ، في هذه المدينة التي هاتفني منها مراراً ، وخط لي منها رسائل عدة ، هنا يعيش مع زوجته السويسرية ، معلمة في معهد فني .

فراغ المحطة ، الأرصفة المتعددة ، أكثر من عشرة ، القطارات الطويلة ، بعضها داخلي ، يصل مدناً سويسرية فقط ، معظمها يتجاوز الحدود إلى البلدان المجاورة ، قبل خروجنا إلى رصيف عربات الأجرة قال إنه سيفتح الباب ، وسيقوم السائق بوضع الحقيبة في السيارة ، حذرني من حملها كما

نعمل في مصر ، وأثناء توجهه إلى مقعد القيادة ، تدخل إلى المقعد الخلفي ، هنا لا يركب أحد بجوار سائق الأجرة إلا في ظروف محددة حصرها القانون المطبق هنا ؛ لن يصدع رأسي بتفاصيلها ، لن أحتاج إليها ، لن يزيد عدد المرافقين عن شخص واحد طوال مدة إقامتي ؛ سواء في بازل أو زيوريخ أو برن أو جنيف أو لوزان أو سولوتورن ، قال إنه قرأ بدقة البرنامج الذي طبع منه عدد محدود جداً من النسخ لأسباب أمنية .

بدأت أنتبه

"هل ثمة أخطار ؟"

أومأ برأسه ، قال إن الأمن هنا لا مثيل له في أي دولة أوروبية، ضحك .

"لا تنس أنها دولة بنوك، والأموال تحب الهدوء في رقادها وحركتها .."

مثلت أمامي ناصية ، في مواجهتها مبنى قديم ، مدخله فسيح ، مهيب ، تعلوه تماثيل صغيرة ، قصدته يوماً ؛ لكن أين يقع بالضبط ؟ ، لا يمكنني التحديد .

لماذا تمثل تلك الواجهة هنا ؟

لا أعرف !

يقول صاحبي :

"الاحتياط واجب ، خاصة إذا تعلق الأمر بكاتب قادم من إحدى دول الشرق الأوسط حيث المشاكل ساخنة ، فعالة .."

يطل الفندق على نهر الراين ، رائحة بن قوية تعبق المدخل ، الأرائك

وثيرة ؛ المقاعد عتيقة ، إطارات ضخمة للمرايا ، أستدعي أخرى مشابهة في مقهى الفيشاوي ؛ بعد تسجيل البيانات وتسليم الحجرات ، توقفنا متطلعين إلى الرقم المكتوب بحروف معدنية بارزة ، دعوت صاحبي إلى الدخول قبلي ، لكنه بسط يده معترضاً .

"أنت الآن المتصرف في المكان، صاحب بيت يعني..لا بد أن تتقدمني.."

تبدو الحجرة متواضعة بالقياس إلى فخامة المدخل وصالة الاستقبال ؛ غير أن ما أبهجني اتساع النافذة ، استطالتها ، تدفق الضوء عبرها ، تطل على نهر الراين مباشرة ، جسر حجري ، يمضي فوقه قطار كهربائي أخضر اللون ، عرباته نحيلة ، أربع أو خمس ، يمكن القول إنه ترام متطور ، يبدو أن صاحبي لاحظ اهتمامي ، فقال :

"سنعبر هذا الجسر مشياً .. ونركب الترام .."

فوق المنضدة الصغيرة مجموعة من الكتيبات الصغيرة ، النحيلة ، أحدها لشرح نظام الاتصالات المتبع وخاصة طلب المكالمات الدولية ؛ الثاني يتضمن أسعار الغسيل ، الثالث يوضح أنواع الطعام وعددها ثلاثة ، وأنواع الإفطار وتنبيه بضرورة تعليق القائمة المرغوبة إلى مقبض الباب في حالة تناوله داخل الحجرة ، ورقة منفصلة تتضمن نقاط علة حول الخدمة ، مطلوب إبداء الرأي فيها ،

لم أتوقف عند أي من هذه الأوراق ، من المعتاد أن أجدها في أي فندق، لكن ما أثار انتباهي حرص صاحبي على قراءة كل منها بدقة واستيعاب ما تطلبه ؛ ثم قوله إن بعض القواعد غير مكتوبة لكنها سارية

هنا مثل القانون ، على سبيل المثال الاستحمام بعد العاشرة غير مرغوب ، وبعد الثانية عشر مثير للمشاكل ، الجدران عموماً رقيقة : موصل جيد للصوت : أحياناً يمكن سماع صوت السعال القوي إذا نوى الأمر على الجار المتعب . أيضاً يجب خفض الصوت عند الحديث عبر الهاتف . قلت مبتسماً ..

"لكنني لا أجيد الهمس .."

رفع حاجبيه

"لا حيلة لنا في ذلك .."

قال إنه يمكن نزوله وانتظاره تحت حتى فراغي من غسيل وجهي وترتيب أغراضي ، بل يمكنه قضاء ساعة بمفرده حتى أتمدد وأستريح من السفر ، يعرف أن موعد الطائرة مبكر ، ويقتضي الخروج فجراً من البيت ،

"صحيح .. لكنني غير متعب .."

حيوية تصاحب وصولي إلى الأماكن التي أبلغها لأول مرة ، أرغب في استيعاب كافة ما أراه ، البقاء في الحجرات المغلقة أقل وقت ، أتوق إلى المشي ، الانتقال ، تأمل الناس من موقع كاشف يبقيني أرتاح إليه .

هكذا .. فارقت الفندق برفقته ، يفيض في الحديث عن المدينة وتاريخها ومتاحفها وضواحيها ، من نافذة المترو السريع أشار إلى بناية قال إنها تضم القاعة التي عقد فيها المؤتمر الصهيوني الأول ، فيها خطب هرتزل ، بنايات قاتمة وشوارع ضيقة تمتد إلى مدى غير محدد ، من هنا امتدت خيوط وتداخلت مصائر ، رأيت اندفاع السيارة العسكرية في خط متعرج ، كنا

نجتاز المرحلة الأخيرة من الطريق الواصل بين الاسماعيلية والقنطرة ، يميل هنا مقترباً من القناة : المواقع التي يحتلها العدو مرتفعة ، إنهم يركبون الأرض نتيجة تراكم ناتج حفر القناة منذ قرن وأكثر ناحية الشرق : يمكن للأسلحة الخفيفة أن تصيب أي هدف يتحرك على الطريق ، لكن أخطر ما يعمل له حسابه الطيران .

يتصل الصمت : ملامح صاحبي أسيانة إلى حد ما ، يبدو إذ يتطلع ناحيتي مباشرة مبتهجاً ، قال إنه يمضي أياماً طويلة بمفرده ، خاصة عندما تسافر زوجته إلى قريتها الجبلية لزيارة أمها التي تقترب من التسعين ، أو للتفتيش على بعض المدارس في المقاطعات المجاورة ، قال إنه يقرأ معظم الوقت ، لكنه يشعر بالوحدة ، وهنا كل شخص في حاله ، لاحظت أنه غير راغب في الحديث ، وإذا بادرت فإنه يميل ناحيتي حتى لا يرتفع صوتي ، كنت متدفقاً بتأثير صلة ومحبة ، وحديثي بلغة غير مفهومة لمن يركبون ، عددهم قليل ، معظم العربات شبه خاوية . يجلسون متباعدين ، كل منهم ينظر إلى الأمام : صوب نقطة معينة في الفراغ لا تبين ، لكن يلتقي عندها الجميع حيث اللاشيء ، أناقة بادية ، عطور طاقية ، صمت ساري ، إذا ارتفع صوت تطلعوا إليه باستنكار شديد : يندر حديث اثنين في القطارات أو الترامويات أو أي مواصلة عامة ، البيوت متباعدة أيضاً ، كل موجود من حي وجماد قائم بذاته في الظاهر : كذلك الشوارع الفسيحة أو الضيقة ، الواجهات باردة لا تفصح ، خاصة مباني البنوك والمؤسسات المالية الضخمة ، الشاهقة ، بادية الصد والجهامة ، هنا أدركت بحدة وحدة القطارات الساعية ، تلك التي أعرفها وما تزال تطوي داخلي ، لم تتوقف

قط منذ أن ركبتها حتى زمني هذا ، لا أستدعيها إلا متحركة ، منطلقة ، فكأنها لن تتوقف أبداً إلا عند صمتي الأبدي : ما دمت أمضي ، أنتقل من لحظة إلى أخرى : من صحو إلى يقظة ومن نيام إلى هجوع فإنها دائمة ، مستمرة ، قطارات وحيدة تماماً ، رغم تعدد العربات ، وتنوع الركاب والمنقولات ، لكن كل منها ينطلق في شتى السرعات بطيئة أو قصوى بمفرده ، يقع التجاور لثوان معدودات في الحركة أو لدقائق في المحطات ، مروق دائم ، وإذا تم اللقاء تقع الكارثة .

بعد نزولنا إلى المحطة القريبة من بيته تخلى صاحبي عن تحفظه ، بدا أكثر مرحاً ، لكنه عاد إلى صمته عند ولوجنا الباب الخارجي للبناية التي يسكن الطابق الثاني منها ، فارقناها في السادسة إلا الربع بعد حفاوة غمرتني ، وزمن استعدنا فيه اللقاءات الحميمة ، واستحضرنا أصدقاء مشتركين ، عدنا إلى رصيف آخر مختلف ، قطار أسرع يصل ما بين الضواحي ، انقضت الصمت بأسرع مما تصورت أو قدرت ، نزلنا محطة نهائية ، تتوقف القضبان فيها عن الامتداد وتقوم المصدات ، سقفها زجاجي ، بسيطة ، الأبواب تؤدي مباشرة إلى سلالم تقوم على منحدر مغطى بنباتات عميقة الخضرة ، عند مدخل البناية التي تقع بالقرب يقف صاحبنا الرسام ، من القاهرة ، جاء في منحة دراسية لمدة سنة ، كث اللحية، صريح العبارة ، لا يخفي امرأ ، مضينا على الفور إلى مبنى يشبه المحطة ، توأم لكنه بدون قضبان أو قاطرات . في داخله صفت أرائك ومقاعد في مواجهة مسرح مكشوف ، فوقه بيانو أسود قديم ، وآلات نفخ نحاسية ، وطبول من مقاسات مختلفة ، إفرنجية المظهر ، عازف يضبط أوتار

التشيللو، توائد الجمهور ، اثنى عشر ، كلنا ، العازفون أربعة ، موسيقى صاخبة ، صعلنية : خلو من أي إيقاع مألوف عندي ، طرقات متوالية ، نحاسية ، أنات وترية لا تكتمل ، فوضى ضاجة ، مزق نغمية حادة : دونت ملاحظة قبل انصرافي عن التناقض الحاد بين انضباط الخارج وفوضى الداخل . هذا ما تكشف لي مع كل نقلة ، وتمام أي خطوة .

تصفيق هادئ : متزن ، محسوب ، أحاول الاحتفاظ بملامح من أرى ، الليل مكتمل ، بالأمس كنت في القاهرة ، وفي الأسبوع القادم لا أعرف أين ؟ ، صحيح أن البرنامج صارم ، كل شيء فيه محسوب بدقة ، لكن من يضمن حلول اللحظة التالية ؟

بدأ انصراف من لا أعرفهم ، من جمعني بهم الحيز فترة محدودة ، تماماً كالسفر في القاطرات ، لن تقع عيني على أحدهم ، ستبقى كينوناتهم مجهولة ، كذلك هوياتهم ومصائرهم ، ويوماً ستختلط الملامح ، ربما أتذكر بدقة هذا السقف الزجاجي ، وأعجز تماماً عن استعادة ملمح واحد من أولئك الحاضرين ، وربما تمضي الأمسية إلى اندثار تام .

عندما وصل القطار بدت مقدمة ذات حضور إنساني حزين بشكل ما ، ضاعف حضوره من خواء المحطة ، عندما صعدت قلت لصاحبي :

"نحن بمفردنا"

أومأ بتحفظ مهموم : بدا قلقاً ، ثم وقف بعد التحرك المتمهل في البداية، أشار إلى المقعد الذي يلي كابينة القيادة مباشرة .

"من الأفضل جلوسنا هنا ."

أبديت دهشتي بملامحي ، قال :

"سأشرح لك فيما بعد .."

لكنه بعد لحظات مال تجاهي هامساً بحساسية الوضع تجاه الجنسيات الأخرى ، نعم .. الأمن مستتب وسويسرا أفضل وضعاً من غيرها ، لكن يوجد متعصبون ، خاصة ضد الملونين أمثالنا ، قال إننا قريبون من السائق ، لا يفصلنا عنه إلا هذا الجدار الزجاجي الغامق ، حتى إذا تعرضنا إلى أي خطر يمكن الاستفادة به ، إنهم مزودون بأجهزة اتصال حديثة جداً ، إضافة إلى تسليح جيد ، طوال المسافة لم يصعد أحد إلى العربة ، عندما نزلنا في المحطة القريبة من الفندق وقفت على الرصيف ، بتلقائية نظرت إلى مقصورة القيادة ، تماماً كما أفعل عند ركوب الحافلات أو الطائرات ، رغبة دفينة ، غامضة ، في رؤية من يتولى أو قاد المضي بي ، غير أنني هذه المرة فوجئت ، ضحكت بصوت مرتفع متجاوزاً كافة ما رصدته أو تلقيته عن الحذر السويسري .

"لماذا تضحك ؟"

أشرت إلى السائق ، رغم تحفظه وحرصه إلا أنه لم يحجب ابتسامة ، كان قائد القطار فتاة جميلة الملامح ، لا تتجاوز الخامسة والعشرين ، عندما لاحظت تطلعنا ، لوحت فلوحنا لحظة انطلاقتها ، واتفق لي فيما بعد مثل هذا مما دونته تلميحاً أو تصريحاً في "أسفار المشتاق" الذي أشرت إليه ، فليطالعه من يرغب !

***

اليزيس

الاثنين صباحاً

تحرك القطار في العاشرة والدقيقة السابعة والعشرين وصول زيوريخ ، الحادية عشر والدقيقة الثالثة وعشرين ونصف ..

ونصف ؟

نعم .. وستري .

لوحت من خلف النافذة لصاحبيّ ، الكاتب والرسام ، انتهت عطلة نهاية الأسبوع ، ومنذ اليوم سأتحرك في إطار البرنامج المكتوب ، فيما بعد سألت صديقاً سويسرياً :

"لماذا الدقيقة الثالثة وعشرين ونصف ، لماذا التحديد الدقيق بالثانية في وسيلة معرضة للتأخير ولو بضع لحظات ؟"

قال إن ذلك أمر صعب الحدوث ، ويعد من النوادر ، وربما يرفع البعض دعوى قضائية ، أما التحديد فلكثافة حركة القطارات ، والحرص الشديد

على انضباطها ، هنا حركة ربما تكون الأشد كثافة في أوروبا كلها ، تختص سويسرا بنظام دقيق ينسق حركة القطارات ، ويعد البديل للنظام الإنجليزي، تمضي القطارات هنا بدقة تثير الإعجاب ، متعددة ، مختلفة ، محلية ودولية، يمكن ركوب قطارات فرنسية ، وإيطالية ، وهولندية ، نمساوية ، شمالية ، شرقية ، كلها تندفع بالطاقة الكهربائية : شبكة هائلة معلقة فوق القضبان الراسخة ، المثبتة .

في ذلك الصباح بدأ انتباهي للقاطرات السويسرية ، ورغم مرجعية قطار الصعيد القديم عندي ، إلا أنني بذلت الجهد للإحاطة بهذا الشيء الخاص الذي يمنح للمركبات سماتها وخصائصها .

القطارات التي تصل بين المدن الرئيسية متوسط عدد عرباتها من سبع إلى عشر ، طلاؤها أخضر زيتوني ، يتوسط جدرانها الصليب الأحمر على خلفية ناصعة البياض ، لا يوحي المظهر الخارجي المتجهم بوثارة المقاعد ورحابة الممرات وفيض الضوء الداخلي : الرمادي غالب على القطارات المتجهة من وإلى الدول المجاورة أو النائية ، عدد عرباتها أكثر ، يتجاوز العشرين : الواحد يضم أكثر من وجهة ، كأن تكون بعض العربات مخصصة لبلد معين مغاير للعربة التالية ، وفي محطة محددة يتم الفصل والإلحاق بقطار آخر ، وهكذا .

ثمة قطارات أقصر مدى ، صفراء اللون من الخارج ، معرض لشتى الألوان من الداخل ، ركبت أحدها مخترقاً غابات كثيفة ، أنفاق من الأغصان والأوراق الخضراء ما بين ثولوتورن وبرن ، توزعت ما بين انبثاقات الشجر وتجذره وبهجة القطار ، سمعت عن قاطرات عتيقة تعمل

بالفحم ، وتطلق صفاراتها التي تفيض بالشجن ، تتحرك بالطلب ، يمكن لمن يرغب استئجار أحدها وأن يقيم حفلاً لعيد ميلاد أو بذكرى معينة أو لإتمام صفقة، لا أدري في أي مجلة قديمة قرأت عن باشا كان يسكن ضاحية حلوان ، دعا إلى بيته زملاء دراسته الابتدائية بعد مضي سنوات عديدة ، طال بهم السهر، وعادوا إلى القاهرة في قطار استأجره خصيصاً لهذه المناسبة .

يمضي القطار إلى زيوريخ ، أسلك الطريق عائداً إلى أول مدينة نزلتها عند وصولي ، معالم لم أستوعبها ، كأني أراها لأول مرة ، ضجيج احتكاك العجلات بالقضبان خافت جداً : يخرج القطار من ظلال إلى ضوء إلى عتمة الأنفاق التي يتغير الصوت عند اختراقها بسرعة ، أحرص على اختيار مقعد مفرد ، لا أرغب في الحديث حتى لو طالت المسافة ، أفضل الملاحظة والمعاينة وإمعان النظر فيما كان وسيكون ومراقبة ما يقع في مدى بصري خفية ، عدد الركاب قليل جداً ، في بازل رأيت قطارات تتحرك شبه خالية ، اليوم أول الأسبوع : قال صاحبي إن المواصلات من وإلى زيوريخ تكون مزدحمة ، معنى الزحام هنا أن يكون الركاب أكثر من نصف مقاعد العربة الوحيدة ، زحام سويسري أيضاً ، الأمر نسبي ، في رحلة سابقة إلى ألمانيا ، وما بين فرانكفورت ومدينة أرلنجن عرفت الاسترخاء في القطار خاصة بعد احتساء البيرة أو النبيذ الذي يبلغ بي هذا الحد الرهيف ، اللطيف من النشوة المتفائلة ، لكنني لم أقدم خلال رحلتي تلك ، ما زال النهار في بدايته ، والمسافة انقضى أكثر من نصفها قبل أن أنتبه إلى مرور المضيف الذي يدفع عربة المشروبات الصغيرة أمامه .

مرة أخرى أبلغ المحطة الفسيحة ، متعددة الأرصفة ، غالب عليها اللون الرمادي تنتظرني السيدة كاسوت هذه المرة أمام عربة الأكل . ترتدي معطفاً رمادياً ، سقف معدني مرتفع يحدد الفراغ ، يستحضر عندي محطة مصر ، محطة الاسكندرية الفسيحة ، يسمونها أيضاً محطة مصر ، تتداخل محطات من باريس ، من روما ، تطفي محطة مهيبة تنطلق منها القطارات إلى ليتجراد - بطرسبورج الآن كما كانت قبل الثورة - غير أنني أتردد بالمخيلة على محطة مصر الرئيسية ، كل ما أستدعيه عمداً أو تلقائياً كان عابراً ، وبعض المحطات لم أمكث بها إلا دقائق الانتظار : مثل زيوريخ تلك : أو برن ، أو لوزان التي تمثل أمامي مداخلها وجدرانها الخشبية أكثر من أرصفتها ، تتوالج أماكن الانتظار ، تتجاور أرصفة متباعدة لا يمكن أن تتماس إلا في تماهي الذاكرة ، نقاط اللقاء والمراقبة والتلهف والوداع ، الأرصفة المطمئنة ، وأخرى مؤدية إلى الأمل ، لفتات المعجلات الأولى الجالبة للقاءات متوقعة أو انشطارات لا راد لها ، وصول متحفظ . أشواق إنسانية حادة أو متحفظة ، لهفة بادية : أسى يتوارى ، شجن يحل : بداية مكث أو تمام رحيل .

المحطات العلامات : المداخل المؤدية ، اجتيازها ذو اللهفة : السعي لإدراك أمر ما أو القدوم للتوقع ، الملامح المتفحصة : النظرات الباحثة ، لحظات التأجج المصاحبة لزحام القوم : النزول والركوب : تهلل يعقبه عناق وتداخل أذرع ومضي مرح لشابة ترتدي معطفاً أنيقاً أخضر اللون ورجل أطول لكن من خطوه يبدو تعسره أو تردده أو خجله ، أين جرى ذلك ؟ لا أدري ، لا أدري

تبدو السيدة كاسوت أكثر ألفة ، قلت إن ملامحها مألوفة عندي : شرقية السمات ، قالت إنها ولدت في القسم الإيطالي من سويسرا : إيطاليا تعني البحر الأبيض : نفس البحر الذي تطل عليه الاسكندرية ، حيث أول رؤية عاينت خلالها زرقة الماء اللامتناهي ، لحظة من ثوابتي ، تلك الفرجة ما بين الشارع الضيق ، المؤدي إلى الخضم .

عربة أجرة تنتظر ، شوارع لا يعنيني الاستفسار عن أسمائها ، متشابهة ، تخلو من معالم محددة ، نتوقف عند بناية ملحقة بكنيسة ، منشأة حديثة ، مدخلها مفتوح ، هنا ستقام ندوتي الليلة ، سأقرأ نصوصاً مما كتبت ، ويقوم متخصص بقراءة النصوص ذاتها مترجمة إلى الألمانية ثم تجري مناقشة ، صالة فسيحة ، منصة مرتفعة ، سلالم مؤدية إلى ممر قصير ، باب غرفة فسيحة ، ناصعة الضوء ، نافذة بعرض الجدار ، عندما أستقر بغرفة فندق ، أو مقر إقامة أبلغه لأول مرة أطل ، أرقب المشهد الذي تقع عليه عيناي ، أستوعبه لكثير من الأماكن التي أنزلها لن أعود إليها مرة أخرى ، حتى لو جئت إلى عين الموضع فلن يكون هو ، المكان صنو لحظته ، يفنى مع الوقت المولي ولهذا تفصيل يطول شرحه فالأمر متعلق بدقائق يصعب وصفها أو تفصيلها هنا ، اعتدت التقاط صورة لما تقع عيناي عليه ، لما أراه عبر النافذة في لحظة الخط الأولى ، حديقة فسيحة ، زاهية الخضرة ، تنتهي بسور قصير محاذ لطريق غير ممهد ثم يبدأ انحدار ما يشبه مرتفع صغير ، ليلة واحدة أقضيها في هذه المؤسسة الملحقة بالكنيسة ، أمضيت ليلة في مقر المطرانية بمدينة أبو تيج ، السقف تتخلله أعمدة خشبية ، وحجرات تطل على شرفة داخلية ، دائرية ، نخيل ، شجرة تين ، أسوار عالية ، رائحة خاصة بالمكان

فيها عتاقة ، من اصطحبني إلى هناك ؟ ، كيف أقمت ، كم أمضيت ؟ كان صغير القطار يبدو قادماً من بعيد رغم أنه مطل على الخط المتجه جنوباً وشمالاً ، عدت إلى المدينة ، إلى مقر الجهة الداعية ، مضيت بصحبة فنان متخصص في فن البورتريه إلى معرض للوحات موديلياني ، أمضيت ثلاث ساعات ، لوحات تم تجميعها من متاحف عدة في قارات متباعدة ؛ في بازل قضيت السبت الماضي في المتحف ، خاصة في الطابق الثاني حيث توجد ثلاث لوحات لهنري روسو ، شخصت إليها متمثلاً كل لحظة لامست فيها الفرشاة سطح اللوحة ، لحظات إبداع ما أرى ، أحاول استعادتها من جديد، رغم أنني رأيتها في كتب مطبوعة ، لكن مشاهدة الأصل مغاير تماماً ، لا بد أن يختلف شيء ، الرؤية في الضوء الطبيعي غير الضوء الصناعي ؛ في الصباح مغايرة للظهيرة أو العصر ، ولو جئت بعد انصراف القوم وإغلاق المكان فسأشهد تكويناً مختلفاً وأدرك أموراً أخرى ، نظرة الآن تستوعب ما يختلف عن نظرة الغد أو الساعة التالية رغم أن ما تراه يبدو ثابتاً ، قائماً ، ولكنه الجمود الظاهري ، نعبره ويعبرنا ويقع الاختلاف ، تذكرت أن أحدث مرافقي الفنان السويسري في ذلك لكنني لم أقدم ، شغلت أيضاً بتأمل ملامحه المستطيلة ، وهدوئه البادي ، وحديثه عن النحت في آسيا ، وإعجابه بالتماثيل البوذية واستيعابها للإنسان في كل زمان ومكان ، كان يتدفق بحرارة ثم يتوقف فجأة ، عندئذ تبدو عيناه حزينتان ، كأنه على وشك البكاء .

ازدحمت الصالة الرئيسية ، تنوعت الأسئلة وطالت الأجوبة ، وخلال ثلاث ساعات من نقاش طويل علقت بعينيها ، استقر طوالي عندها ، كانت

بالغة الدراية بمصر ، عارفة بأسماء القرى الصغير والمدن الكبيرة ؛ منبعة بإخميم ، حوالي الواحدة صباحاً كنا ثلاثة ، نجلس إلى طاولة مستديرة ، هي وسيلة ممثلة متخصصة في الزهور الصناعية ،ثمت بصلة قرابة إلى صحفية مصرية شهيرة ألتقي بها في حفلات المسرح القومي ودار الأوبرا واجتماعات لجنة التضامن الآسيوية الأفريقية ، والمؤتمرات المناهضة .

في الثانية إلا ربع صرنا بمفردنا ، هدوء عميق ، بناية خالية ؛ أم يقيم داخلها آخرون ؟ ، كنا نشرف على صالة أقل مساحة تتوسطها منضدة فوقها أطباق بها شطائر وعلب عسل نحل صغيرة وأوعية مربى وقطع جبن مغطاة ، ودوارق مصفوفة ممتلئة بعصائر مختلف ألوانها ، إنه إفطار الغد ، ليس من المعقول أنه أعد لفرد واحد ، أين الآخرون إذن ؟

بدأت سعي على الفور ، دعوتها إلى الجلوس قليلاً في حجرتي ، بدت مترددة في البداية ثم نبحتني ، أشارت إلى شفتيها بما يعني ضرورة الصمت فأيقنت من اكتمال الدائرة ، أجج الانفراد نزوعي ، وأضفى النبيذ الجيد مظلة دافئة حجبت الكدورات وبعثت ما كمن ، غير أن استجاباتها بدت حذرة ، قالت إنها لا تستطيع أن تمكث هنا ، لا بد أن تذهب ، ثم نعود إلى الحديث عن مصر ، والأزمنة القديمة ، كانت تحمل في حقيبتها كتيباً صغيراً عن معبد أبيدوس ، قالت إنها أمضت داخله ليلة كاملة ورأت أشعة الشمس لحظة ميلادها على واجهته فكادت تجن ، قالت إن اسمها إيزيس ، غيرت اسمها الأصلي ، لم تذكره حتى لا أخطئ وأناديها به ، عند لحظة معينة أدركت أن الفجر يقترب ، وأن نهاراً من الشقة المتصلة ينتظرني غداً ، لم أقاوم عندما أصرت على الذهاب ، شرعت أرتب الغرفة لتتلائم مع

عادتي المؤدية إلى النوم : أحاول احتواء ما يضمه المكان بالنظر ، كوب الماء المحلى في متناول اليد إلى جوار السرير . الساعة ، إحكام الإغلاق ، الباب، النافذة ، الإصغاء للتعرف على أصوات المكان ، سيتحرك القطار في الثامنة والربع إلى مدينة برن ، هذا يعني استيقاظي في السادسة والنصف ، لن تتجاوز ساعات نومي الثلاث ، يبدأ توتري المصاحب لإدراكي ضرورة الصحو في ساعة مبكرة أو توقيت محدد ، أعرف نشاط ذهني وسرعة تعاقب الصور رغم الإرهاق وتقلبي في الفراش ، من الأفضل استخدام ذلك الدواء الفرنسي ، لا ألجأ إليه إلا عند الضرورة ، إذ يقضي الأرق ، رشفة ماء ونصف قرص فقط .

خطوات متسارعة

يدق الباب ، أصغي إلى صوتها ، تبدو هلعة ، مخضوضة .

ماذا جرى ؟

تقول إنها أثناء انتظارها عند محطة عربات الأجرة ظهر رجل يرتدي معطفاً ونظارة سوداء ، دار حولها ، بدا مخيفاً ، وعندما قررت العودة اقتفاها مطلقاً أصوات غريبة ، لكنه لم يتبعها إلى داخل المبنى ، أهدئ من ارتجافاتها، أطلب منها أن تتمدد فوق السرير ، أن تنام هادئة تماماً ، لكنها تأبى ، ينحسر ثوبها عن فخذين ممتلئين ، مجربين ، لكنهما لا يثيران عندي أي رد فعل ، كنت راغباً في إطفاء الضوء وهجوع كل منا رغم ضيقي بنوم من لا أعرفه على مقربة ، في السنوات الأخيرة أفضل الوحدة عند النوم ، تماماً كما أختار المقعد المنفرد في القطارات حتى أخلو وأبحر في التأمل ،

تصر على استدعاء عربة أجرة بواسطة الهاتف ، لأول مرة أكتشف وجود الجهاز في الغرفة ، لم أره لأنني لم أفكر قط في الاتصال، لا أعرف أحد هنا، والرقم الحميم الوحيد معي لصاحبي في بازل، وأن أهاتفه الآن مستحيل، عندما تنتفي الحاجة تختفي الأشياء من البصر، حتى مع وجودها.

تتحدث بالألمانية بعد أن تم الاتصال . تضع السماعة وتسند ذقنها إلى راحة يدها ، أكرر دعوتي بالبقاء ، لكنها تصر ، يقترب صوت عربة ، يتوقف ، أخرج معها إلى الممر ، لا ألتمع بمفارقتها هنا ، لكنها تشير بحزم ، أعود إلى الغرفة ، أرقد أخيراً ، ما بين اليقظة والنوم إذ توشك الأشياء على التماهي ، تتردد نقرات خفيفة على الباب .

أرحل ...

***

خزانة

دائماً عبر النافذة ، أسدد البصر إلى نقطة لا يمكنني تحديدها أو تعيينها ، إنه الوضع الأمثل للتنقل عبر اللحظات الماضية ، أو تلك الآتية ، أو ما لا يوجد ، المقعد فسيح ، مريح ، أسترخي متمنياً إغفاءة قصيرة ، لكن يبدو ذلك صعباً ، وعند إدراكه : ما أمر به يقع عليه بصري لأول مرة ولن أسلك هذا الطريق مرة أخرى ، صوت العجلات يتوارى بفضل احتياطات عديدة، خافت كأنه قطار بعيد ، لكن يشهر لفاته عند المرور فوق الفواصل أو التقاطعات التي تتخلل الطريق ، خاصة ما قبل وما بعد المحطات التي لا يتوقف بها .

أستعيد القطارات المتعاقبة ، أتنقل بينها ثم آوي إلى رقم ثمانية وتسعون الثامنة صباحاً ، إنه البداية ، لإقامتي الآن عمق ومدى ، في اليوم التالي نزلت من قطار الضواحي بصحبة الفنان المصري المقيم لمدة محدودة ، الوقت عصر ، وللمصارى في الديار البعيدة عن موطني ثقل خاص ، إذ يهن الضوء يبدأ اقتراب الليل ، ما بين العصر والمغرب مواز للنهايات ،

أرقب دورة الحياة في ساعات النهار ، الميلاد صباحاً ثم تتعاقب المداخل ، موجز الدورة الكبرى في الصغرى ، لكننا لا ننتبه ، مشياً عبر ممر مرصوف بالحجر ، صاعد قليلاً ، لذلك أجهدني ، تحفنا أشجار منسقة ، إنها الغابات المخططة ، منطقة تسمى جوانتوم ، نصحني صاحبي القديم بزيارتها ، بيوتها تخلو من الخطوط الحادة والزوايا القائمة ، ما من سقوف محدبة ، أقواس للمداخل ، للأبواب ، للنوافذ ، الزوايا الحادة تثير أعصاب الإنسان ، لكن جوانتوم تحوى عناصر أخرى تعد تطبيقاً لأفكار فيلسوف ومفكر ألماني اسمه شتاينر ، له أتباعه ومن يحتفى به كل عام ، دعا إلى استخدام المواد الطبيعية فى كافة عناصر الحياة ، المنسوجات من قطن خالص أو صوف غنم ، ألوان الصباغة من العصفر وعرق الحلاوة ، والنيلة ، الخرسانة بلونها الطبيعى ، الأحذية من جلود الحيوانات ، البيوت متباعدة ، نوافذها مغلقة ، لولا الغلالات الموضوعة فى صناديق نحيلة أمام الأبواب والأحذية الدالة على عدد أفراد البيت ومن بالداخل وأيضاً المستوى الاجتماعي لظننت خلو المكان كله من البشر ، خضرة خصبة ، وأشجار معمرة ، وصفاء منهمر وفرادة موضع ، عندما عادت زوجة صاحبي القديم متأخرة ، أبدت اعتذاراً، إنه العشاء السنوى ، يجيء الخريجون ليلتقوا بها بعد أن تفرقوا ، في مراحلهم الأولى تسأل كل منهم عن أمنيته ، عن العمل الذى يود ، يكتب كل منهم ، تحتفظ بأوراق عديدة خطت خلال أعوام متتالية ، عند اجتماعهم تفاجأهم بتعليق أمانيهم القديمة على السبورة ، تتأمل ردود الأفعال .

تلميذة تمنت أن تصبح كاتبة، تعمل الآن مساعدة فى معمل تحاليل طبية.

أحدهم ود دراسة الطب ، الآن ميكانيكى سيارات .

ثالث خطط ليتعلم الطيران ويطوف العالم ، أصبح مساعد مصور سينمائي .

قال صاحبي إن الانتقال من طبقة إلى أخرى هنا أمر صعب جداً ، المجتمع محددة درجاته بدقة ، تماماً مثل هذا القطار الذي أسافر فيه ، يفصل ما بين الأولى والثانية عربة للطعام ، أو للبريد ، لا يمكن تبرير الخطأ ، كل عربة لها مكانها المحدد فوق الرصيف ، علامات حديدة معلقة إلى المظلات الواقية . أسترجع الإحساس القديم عند ركوبنا الدرجة الثالثة ، بُعد الدرجة الأولى وانفصالها رغم أنها من مكونات القطار ، بل إنني في سنوات الطفولة المبكرة لم أعرف بوجود درجة أولى فاخرة وأخرى عادية إلا بعد سفرات عدة ، وما تمكنت من رؤية مرة مقاعد الدرجة الثانية إلى أن بدأت رحلاتي كموظف صغير من حقه ركوب الثانية العادية طبقاً للائحة بدل السفر ، ثم ركوبي قطارات شتى ، أمر بها وتمرق عبري ، ما من نهار أو ليل يطويني إلا ويبدو لحظة تمت إلى قطار عرفته ، إما في انتظاره وسعيي إليه ، أو حركته ، نافذة ، قضبان بادية ، ضجيج عجلات ، صفير ، البواعث شتى، باستمرار ثمة قطارٌ ، إنني بين اثنين ، مغادر لأحدهما ، قاصد للآخر، ما يبز ذلك مسافة زمنية ، فترة ، ربما يضيع دقائق أو ساعات أو شهور ، لكن أي مُكث لا بد وأن يصير إلى قطار ما .

في ذلك اليوم أطبق عليّ النظام الصارم ، وجدته طائعاً ، لا فرصة للفكاك منه ، لو حدث سألقى متاعب شتى ، على رصيف محطة برن ، في المكان المحدد ينتظرني صاحبي ، مترجم بعض ما كتبت إلى اللغة الألمانية ، اعتدت أن ألقاه في مصر عند تردده عليها ، يماثلني عمراً ، مولود في نفس

العام ، يبدو متقدماً عني ، بدا ودوداً ، أصر على حمل حقيبتي وهذا مما أخجلني منه ، تقدمني بخطاه الفسيحة ، طويل نحيل ذو لحية شعرها أشيب ، مشينا خلال ممر تحفه أقواس مطلية بالأبيض الناصع ، استدعت عندي مدينة فاس وقسماً من شارع محمد علي وظلالاً من طريق ريفولي في باريس وناصية مؤدية من مدينة لم أستطع تحديدها بالضبط . ربما في أسبانيا ، أو المكسيك ، أو لا وجود لها .

لم يكن الفندق بعيداً ، بعد تدوين البيانات واستلام المفتاح صعدت إلى الطابق الأول ، غرفة داخلية لا تطل على الطريق ، مَثُلَ عندي فندق صغير في مدينة الزقازيق ، نزلته عام ثلاثة وستين ، وكانت النافذة لا تؤدي إلى شيء ، أفتحها فألقى جداراً أصماً من حجارة مضطربة الرص ، قديمة غير متساوية . في مبنى الجامعة القريب والذي يحتل بناية عادية تحدثت إلى من يدرسون العربية وكان أستاذهم نحيلاً ، قليل اللفظ ، قال إنه سيراني في المساء عند صاحبي ، بين الصفوف رأيت اثنين ، أصغيت إليهما ، أحدهما يمت بصلة إلى العائلة المالكة السابقة ، لا أدري درجة قرابته بالملك فاروق لكنه بدا معتزاً ، فخوراً ، وردد ذلك أكثر من مرة ، أما الثاني فكان فلسطينياً استقر به المقام هنا منذ سنوات طويلة ، أعي انحناءته وتطلعه الساهم إلى الأمام ، فيما عدا ذلك لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا ، ورغم جلوسنا في مقهى قديم إلى جوار نافذة يبدو من خلالها طريق مرصوف بالحجر ، إلا أنني لا أستدعيه إلا جالساً في قطار ما أجهل وجهته ، مطعم عائلي التكوين ، في ركن الصالة مدفأة مرتفعة من خزف منقوش ، أبيض وأزرق ، جرى ترتيب موعد مع كاتب سويسري يسافر كثيراً إلى أمريكا اللاتينية ، قال إنه حريص

على رؤية الأشياء من داخلها ومن خارجها ، لذلك لا يقر له قرار ، لا يستقر أكثر من شهر ثم يستأنف السفر ، قال إنه وحيد ، ويغطي نفقاته مما يكتبه.

في العصر أويت إلى غرفتي ، بعد عشائي بخمس دقائق لا غير رن الهاتف ، دهشت عندما أصغيت إلى صوت إيزيس السويسرية ، بدا أنها تعرف برنامجي بدقة ، فيما تلا ذلك تأكد عندي الأمر ، إذ كانت تتصل فور دخولي أو قبل مغادرتي . قالت إنها تصاحبني الآن من خلال كتابي وأنها تتمنى لو تحدثت معي عن إحساسي بالزمن ، في المساء تناولت عشائي بصحبة المترجم ، دعا عدداً من طلبته الذين يدرسون العربية ، والأستاذ الذي قابلته صباح اليوم : كان الطعام سويسرياً تماماً ، أنواع شتى من الجبن الصلب والسائل والطري : المستطيل والمستدير ، وبطاطس صغيرة الحجم : مسلوقة ، وكانت ربة البيت صديقة صاحبي وشريكة إقامته منذ سنوات طوال تبدي مودة وتتحدث عن رحلة سيقومان بها إلى الشمال، بالعربة، وتحدثت شابة نحيلة عن الأدب الفارسي بإعجاب ، وقالت إنها تهيم حباً بحافظ الشيرازي، فأبديت سروري وأضفت إليه سعدي أيضاً ، قرأتهما بعد ترجمتهما إلى العربية ، قال شاب يرتدي قميصاً بدون ياقة إنه عاد من الحدود الكويتية العراقية أول أمس، إنه يعمل بالصليب الأحمر، أبديت اهتماماً، سأله الأستاذ عما عاينه، لكنه اعتذر برقة وحسم، قال إن رجل الصليب الأحمر يجب ألا يتحدث عما رآه أو سمعه.

قبل أن أدلج في النوم ، رن الهاتف ، كانت إيزيس السويسرية تتمنى لي ليلة سعيدة ، أقلقني اتصالها هذا ، فموعد عودتي إلى الفندق غير موضح

بالبرنامج المطبوع في نسخ محدودة جداً يبدو أن أحدها عندها .

ودعني صاحبي أمام عربة القطار المحددة ، كنا سنلتقي بعد يومين في مدينة سولوتورن ، بدا معتنياً ، عنده قيض ، معتبراً لمسئولية خاصة تجاهي ، في جنيف وعند نهاية الرصيف كانت تقف الأستاذة الجامعية ، لم يكن عسيراً قط تعرفي إليها من بعيد ذلك أنها مصرية من الاسكندرية ، جاءت في مهمة دراسية وبقيت بصحبة أبنائها الثلاثة ، لم تأت بخبر أو إشارة تدل على زوجها ولم أهتم بالاستفسار ، كنت أفكر في اليوم الطويل الذي لن أخلو فيه بنفسي ، زيارة لمقر الأمم المتحدة ، الوقوف أمام قطعة من صخور القمر أحضرها رواد الفضاء معهم خلال رحلة أبولو ، أمضيت وقتاً أحدق إلى تلك البوصة الحجرية هرمية الشكل ، جزء من الكون : لقاء صاحب من مصر يعمل هنا ، ثم الذهاب إلى مدرج الجامعة ، الحديث ، الأسئلة ، الأجوبة ، شاب يتكلم العربية الفصحى بتؤدة وفصاحة ، إنه مولود في سويسرا ، أبوه أحد قيادات جماعة الإخوان ، هرب من مصر ، واستقر به المقام هنا ، تردد اسمه على مسمع مني ، قرأته أحياناً ، الغداء مع صحفي يعمل في مجلة لاهوتية ، المشي على ضفاف البحيرة الشهيرة، النافورة تدفع بالماء إلى ارتفاع شاهق، الفنادق المشرقة من أعلى الدرجات وأغلاها: أما أسعار العقارات المطلة فلا قِبَلَ لخيالي المحدود باستيعاب أرقامها، قالت: يوجد مصريون مقيمون أو يمتلكون بيوتاً هنا يترددون عليها ، أصغيت صامتاً ، لا أدري هل تقول ذلك بدافع التباهي أم الرغبة في الكشف ، عندنا في الحوارات المتداولة ، لا أقدر على تعيين مكانها وزمانها، إذ يخبر أحدهم أن فلاناً عنده حساب في أحد بنوك سويسرا ، سري خاص، فهذا جالب

للريبة والشك ، أو للوصف باللصوصية .

لا شيء يغري في هذا المكان ، جمال عادي مؤطر ، مصنوع : طبيعة جميلة ، منضبطة ، تماماً مثل كل شيء هنا ، كل شيء يمضي بهدوء : بنظام، بدون ضجيج ، حتى المظاهرات ، في زيوريخ آويت إلى مقهى في المنطقة القديمة ، تدفقت فجأة إلى الساحة عربات بوليس مدرعة ، نوافذها مغطاة بالقضبان الحديدية ، ظهر رجال أشداء يمسكون عصي كهربائية وأسلحة نارية متطورة ويتمنطقون بمقابض وعصي وقيود متأهبة للإطباق وقنابل مسيلة للدموع .

"ماذا يجري ؟"

"ثمة مظاهرة .."

"لمن ؟"

"للنساء .."

"ماذا يردن ؟ .."

"إنهن يتظاهرن ضد الرجال .."

"ماذا فعلوا بهن ؟"

"لا شيء .. إنهن ينتمين إلى حركات نسوية معادية للرجال .."

قمت واقفاً ، متقدماً صوب نقطة يمكنني من خلالها رؤية ما يجري بحذر ، فوجئت بعشر أو اثني عشر امرأة فقط ، يلففن ، بعضهن يرفعن لافتات كتب عليها ما لا أقدر على قراءته ، وأخريات يرددن بأصوات

نحيلة ، واهنة ، شعارات في مواجهة الشرطة المتحفزة والأسلحة المشرعة .

"لا تتعجب .. غير مسموح هنا بأي هزة للنظام والهدوء .."

مشيت حول البحيرة ، إنهم أثرياء العالم ، يتفقون بغير لقاء على موضع ما ، مكان معين ، يصبح الأغلى ، في متناولهم هم فقط ، بذلك يتم إقصاء المتطفلين ، أو من هم خارج الدائرة الضيقة ، الأسوار حول البيوت مرتفعة تحجب ، والأبواب الموصدة بوسائل شتى تمنع .

عندما بلغت محطة القطار مضيت إلى الخزانة الحديدية التي وضعت داخلها حقيبتي في الصباح ، شرحت لي الأستاذة كيفية التعامل معها بعد وضع القدر المطلوب من النقود ، مقابله يتم حجزها لوقت معلوم ، إنها المرة الأولى لذلك سرى عندي قلق ، ما تحويه يخصني ، ليس مهماً شكل الحقيبة، أو المادة المصنوعة منها ، المهم ما تحتويه ، لم أرحل إلا وأضعها في متناولي ، أو أطمئن تماماً إلى إجراءات تسليمها وتسلمها عند السفر بالطائرة ، في المركبات أحرص على بقائها في متناول بصري ، لذلك أسندها إلى الرف المقابل ولبس فوقي ، سوف تبقى حقيبتي في هذه الخزانة بمفردها ، ثمة مشاعر غامضة تجاهها ، وأمور دقائق أكثر استعصاء ، لم أنطق بسؤال عن مصير الحقائب التي لا يعود إليها أصحابها ، ربما خوفاً من وقوع ما أخشاه ، ذكر الشيء عندي إيذان باستدعائه .

ذروة قلقي خلال السفر تلك المسافات الزمنية الواقعة بين مكانين ، الأول فارقته بالفعل والثاني لم أبلغه بعد : تصحبني حقيبتي ، تستقر في مخزن طائرة أو فوق رف قطار ، كينونتي ممتدة فيها ، عرفت أشكالاً شتى

منذ اطلاعي على محتويات القفة المجدولة من خوص النخيل ، والمغطاة بقطعة قماش منتزعة من جلباب قديم ، القفة القادمة من جهينة مشيرة للشهية ، أستعيد محتوياتها أينما تنقلت ، وإلى أي وجهة ذهبت ، أول ما يوضع داخلها الخبز الشمسي وصلني به وثيقة وعندي منه حنين وإليه ميل ، فوقه الفايش المعجون بالسمن واللبن والمخبوز بيدي عذراء لم يمسها بشر قبل شروق الشمس ، ثم الملوخية للجففة ، وثمار الدوم ، أو التمر ، وآخر ما يوضع الحمام المذبوح والبطة المُعدة حتى لا تفسد من الحر ، عند سفرنا من القاهرة تحتوي القفة على صابون معطر ، وسكر ، وقماش رجالي وآخر نسائي ، وعلب لحم محفوظ أو سمك التونة وأرز رشيدي ، عندما بدأت أسفاري بمفردي لم أصحب القفة إنما حقيبة من ورق مقوى مكسو بورق يشبه الجلد ذات قفلين ، فيما بعد انتبهت إلى جمال الخوص وطلاوة رائحته ومتانته وسعة القفف حتى متوسط الحجم منها ، لكن أفتقدي وبتنقل بقفة أمر يبدو غريباً مع تكرار الأسفار واختلاف الجهات وامتداد المسافات تنوعت الحقائب ، بمجرد أن أبلغ الفندق أهدأ ، يخف توتري ، أتسلم مفتاح غرفتي ، أضعها في مكان متميز ، تبدأ صلتي بما يضمني عندما أستخرج محتوياتها ، أوزعها ، أرتبها ، الكتب إلى جواري بحيث يمكنني النظر إليها أثناء الرقاد ، فوقها ساعة معصمي ، والمنظار الطبي .

دائماً أخشى فقدها ، خلال أسفاري تفاجأني الكوابيس ، تدهمني الرؤى المزعجة ، مصادرها مجهولة ، متداخلة العناصر ، لكن خشيتي من فقدها يظل أبرز ما يؤرقني .

العاشرة ليلاً .

الهواء السويسري ، أرصفة ممتدة ، قضبان وحيدة ، قطار بلا ركاب ، لم ألمح أي راكب ، العربات غامقة الخضرة ، تستحضر عندي زمن الحرب العالمية الثانية بشكل ما .

لماذا ؟

لا أعرف ، ربما لمشاهدتي أفلاماً تسجيلية عديدة لقطارات على أهبة التحرك صوب الجبهات المشتعلة محملة بالوقود البشري ، رؤوس مطلة ، أيدي ملوحة ، مودعة ، قطارات المصير ، وجهة القطار تدل عليه ، تنعكس بشكل ما على هيئته ، حركته ، صوت عجلاته ، صفيره ، تقدمه ، اجتيازه المفارق ، المحطات الرئيسية والفرعية وتلك المنسية ، لم ألمح إلا رجلاً من الطاقم ، يرتدي حلة رسمية زرقاء وغطاء رأس . ودعت الأستاذة المصرية التي لم تبد دهشتها لخلو العربات ، قالت إنها ستتصل في الثامنة عشر للاطمئنان على وصولي الفندق في لوزان ، بعد جلوسي وتطلعي عبر النافذة إلى الفراغ الليلي ، تذكرت أنني لم أخبرها باسم الفندق أو رقم هاتفه ، لا بد أن لديها نسخة من برنامج الزيارة ، تماماً مثل إيزيس السويسرية ، أخبرتني قبل مغادرتي برن صباح اليوم أنها ستقضي عطلة نهاية الأسبوع في لوزان ، ستنزل الفندق عينه ، إنها لفرصة كي نتحدث .

حفيف العجلات كأنه قادم من بعيد ، مع تزايد السرعة لم يرتفع الضجيج ، العربات من طراز أقدم ، لكنها تبدو أرسخ ، كأني أجلس في غرفة استقبال بيت قديم مدثر بالظلال الهينة ، غير أن هذا القطار حيرني ، لم أقدر على تحديد هويته بدقة ، بدا مستعصياً على أي تصنيف لا يشبه أي قطار عرفته من قبل ، حيرني هذا طويلاً إلى أن أدركت جوهر الأمر خلال

رحلتي تلك من سوهاج إلى مصر قبل سفري لإجراء الجراحة الفاصلة ؛ ذلك أن ما يضفي السمات هم البشر ؛ قطارات الركاب تبدو مختلفة ؛ مغايرة عن تلك المخصصة لنقل المازوت أو البضاعة، أو المعدات العسكرية.

يختلف الأمر داخل الهوية الواحدة ؛ ركاب الاسكندرية السريع مغاير للبطيء ، الفاخر غير العادي ؛ المتجه إلى الجنوب له سمات أخرى ؛ قطارات السويس أو بورسعيد فتبدو صفتها قصيرة المدى ، الوحدة الأسبانة تخلف تلك الساعية على الخطوط النائية ؛ ما بين قنا والواحات حيث الخط مفرد ، والرمال ممتدة والصمت قديم ، القضبان علامات غير مؤكدة ، لا تؤنسها العجلات إلا مرتين في الأسبوع .

سرعات مقدرة ، مقننة ، لا بأس من الإسراع ولكن بقدر ، لا حيدة ولا خروج وإلا جرى هلاك مبين . قطارات البضاعة مجرد طوابير معدنية صامتة ، جرداء من كل ضجة أو مشروعات تواصل حميم أو تماس أجساد غريبة عن بعضها . عند التحرك أو التوقف تحتك العربات ببعضها احتجاجاً وربما في محاولة ما للفت الأنظار .

يندفع القطار السويسري عبر الليل المعتم ، أضواء الخارج واهنة ، لا يزيدها المروق السريع إلا وهناً وضعفاً ، راكب وحيد ، لا يوجد سواي ، الليلة تستدعي أخرى لكن .. من زمن الحرب مع أن الظرف مغاير .

بعد اجتيازي منطقة الصالحية الصحراوية قادماً من الخطوط الأمامية المحاذية لقناة السويس ، فارقت العربة العسكرية عند بداية الخط الحديدي ؛ كانت العربات المنتظرة مدثرة بالصمت والعتمة ، تندمج ملامحها بالليل

العميق ، إنه الوسيلة الوحيدة المتاحة ، الرحلة حرجة لأسباب عديدة ، منها ضرورة التحرك بدون أي أضواء حتى مدينة بلبيس ، سرعة متوسطة ، حذرة ، ما يطمئن أن الخط مفرد ، لكن ما لم أستوعبه في البداية أنه مخصص لنقل الشهداء ؛ توقعت تعددهم في عربة مغلقة ، محكمة الإغلاق، العربات كلها للدرجة الثالثة ، مهملة ، نوافذ مفتوحة ؛ بعضها نصف مغلق ، صعدت إلى التالية للقاطرة مباشرة ؛ لمحت ذراعاً متدلي ، ربما ينام أحد الجنود فوق الرف ، هذا وضع عادي في قطارات الصعيد ، وتلك المتجهة إلى سائر المحافظات ، يتكدس المجندون فوقها وداخلها ، يتمددون في أي فراغ متاح ، متعبين ، مكدودين ؛ غير أن اهتزازات الذراع الممتدة بدت بملامح لم أعرفها من قبل ، الاهتزازات تتبع حركة السير ، لا صلة لها بأي باعث ذاتي ، عنيدة الصلة فيما عداها ، تتدلى ذراع أخرى .

التفت إلى العمق المعتم ؛ أدركت وجودهم قبل رؤيتهم ، فوق المقاعد ، الأرضية ؛ الأرفف ، رؤوس مستندة إلى صدور ، أطراف لا تؤدي إلى شيء ، أيقنت بوجود دماء طرية ، دافئة ، لم أولهم ظهري ، إنما جلست على المقعد المواجه للفراغ ، أحاول أن أعتاد العتمة الداخلية وتلك الخارجية، عندي ترسبات، خوف قديم وخشية من مجهول ودهشة لما وجدت أمري عليه ، في العتمة بدأت ملامحهم تتشكل ، بعضها مستعصي عليّ ، لكن منها المألوف ، الحميم ، تفيض بحيوية غامضة ، أتخذ الوضع عينه الذي لزمته في ذلك القطار السويسري ، الوثير ، المرتب ، الأنيق ، المندفع عبر الليل بسرعة تطيل عليّ الأمد .

***

السهوب

كلمة موحية ، أمضيت سنوات أحسها ولا أمسك بجوهر معناها إلى أن ولجتها عاشقاً ، مستغرقاً ، لفظ يستدعي إليّ الخلاء ، ومداه عندي التخيل حتى وإن بدت كثيفة ، متقاربة ، والتطلع عن ذرى الجبال إلى الأفق المنبسط، غير المدرك .

بدأ الأمر من مدينة موسكو زمن الاشتراكية ، وكان ذلك في سبعينات هذا القرن ، عبرت ساحة فسيحة ، باقية عندي من خلال لونين ، أسمر للأرضية ، وأخضر فاتح طلاء جدران المحطة ملائبة الحضور ، ما من موضع أعاد إليّ خطوي الأول فوق الأرصفة مثل ذلك البناء الذي يمتد إلى القرن الماضي .

مقدم على أطول رحلة عبر البر ، أقيم خلالها خمس ليال ، ستة أيام ، في قطار يصل ما بين موسكو وبكين ، عربات عديدة ، لم أحصها ، لكن مظهرها الخارجي يوحي بطول السفر ، في المقصورة المجهزة لإقامة اثنين التقيت برفيقة الرحلة ، قابلتها قبل يومين في مبنى اتحاد الكتاب ، بنية

بولندية ، شاعرة ، على حدود الخامسة والثلاثين ، لها ديوان مطبوع ، هادئة الحضور ، وجيزة التواصل ، شاردة النظرة ، وصلت قبل رنين الجرس بثوان، تطلعت إليّ لاهثة ، باسمة ، قالت إن صعوبة الحصول على عربة أجرة سبب تأخيرها ، ثم قالت : لا أقدر على تخيل وضعي لو أن الموعد فاتني ، ثم قالت إنها رحلة تحلم بها منذ سنوات .

الحق أنني كنت مرتبكاً ، لا أدري بالضبط ما ينبغي أن أفعله ، وماذا يجب أن يصدر عني ، إنها المرة الأولى التي أقيم مدة بصحبة أنثى لا تربطني بها صلة من قبل في هذا الحيز الضيق ، ستبدل ملابسها وتغسل وجهها وتقيم كافة طقوسها على مقربة وبمرأى مني وفي متناولي ، أعرف أن هذا عادي هنا ، في أوروبا كافة ، لكنه مستجد عليّ ، لاحظت عفويتها ورصدت إقبالاً طفولياً منها على الكافة ، سألت أي سرير تفضل ؟ العلوي أم السفلي ؟

استقرت فوق حافة الصخر ، تمددت إلى جوارها ، يتخذ الفراش هيئة المقعد المستطيل إلى أن تحين لحظة النوم يتم تغيير وضعه ، قامت تتطلع عبر النافذة إلى الملامح المتراجعة للمدينة الضخمة ، مترامية الأطراف ، الموزعة مناطقها على غابات كثيفة الخضرة ، تتشابه الحركة عند بداية الرحيل ، كذلك عند الوصول ، السرعة المتغيرة تدريجياً ، المرور السلس فوق فواصل القضبان .

قالت إنها سافرت إلى أماكن عديدة من العالم ، إلى افريقيا ، بالتحديد إلى مالي وغينيا وكينيا والسودان وأقامت في مصر ، والدها كان يعمل في السفارة ، كانت صغيرة لكنها تذكر هذا البلد الجميل وتتمنى العودة إليه .

أصعب ما في العلاقات البدايات وأجملها أيضاً ، يستعيدها الإنسان على مهل ليما بعد وربما لا يرى ما عداها ، بل يمكن القول إن كافة ما يلي ذلك يتحدد خلالها . مدخلي تلك السنوات المنقضية ، بدءاً من تعبيري عن سرور حقيقي وراحة نافذة لتلك الصدفة التي جمعتنا إلى تذكيرها بتفاصيل شتى ، وخلال ذلك كنت أترقب تلك اللحظة التي تتخذ فيها الصلة مساراً خاصاً : هنا تتوافق شتى الحواس وتنشط فاعليتها ، تتأهب لتلقي الإشارة ، ربما تغير درجة في الصوت ، أو نظرة عابرة ، أو إيماءة . وعندما قالت :

"لقد قرأتك .."

انتبهت ، تم استنفاري ، ثمة ذبذبة لا تخفى .

"طبعاً .. كنت أريد أن أتعرف على من سيرافقني الرحلة ، قرأت قصصك المترجمة إلى الروسية .. إنني أثقنها .."

"لي رواية مترجمة إلى الروسية ، للأسف ليس لديّ نسخة منها الآن .."

أخرجتها من الحقيبة ، دفعتها أمامي

"أريد توقيعك .."

قلت ضاحكاً إنني أفضل تأجيل ذلك إلى مرحلة متقدمة من الرحلة ربما أكتب ما يتجاوز التوقيع ، ابتسمت ، إنها تلك اللحيظة المؤهلة لوقوع التماس واستشراف الخصوصية وبدء الفاعلية ، تطلعت عبر النافذة ، تزايدت السرعة ، هذا قطار راسخ ، قوي ، هدار على الطريق ، مع طي المسافة تنقضي الأوقات أسرع ، تمرق المحطات ، كافة المباني متشابهة إنه نشاط التلاقي بين الثابت والمتحرك ، ثمة شبه بمحطات الصعيد ، خاصة التي

تتقدم المدن الصغيرة ، الأرصفة الممتدة ، المظلات الخشبية القديمة : جوهر المحطات وسماتها واحد ، ماذا يميز محطة عن أخرى ؟ إنه الاسم وما يخص الفرد ، سمالوط مغايرة لبني مزار ، لملوي ، أما طهطا فلها وضع خاص عندي .

يستمر تدفق القطار الروسي الممتد عبر النهارات والليالي ، المقصورة مدثرة بالعزلة ، الجلد العتيق ، واللون الزيتوني الغامق ، وحضور الأنثى ، كانت مستكينة ، حاضنة بهدوئها وتطلعها الناعم صوبي ؛ وباتجاه نقطة أخرى ، ثمة حول خفيف في عينيها يمنح ملامحها تلك الذاتية ، اقتربت منها ، ملست على شعرها المقصوص ، القصير ، المبسوط ، الناعم ، قالت مطرقة متطلعة إلى أسفل حيث الأرضية المندفعة بقوة وطاقة اتخذت سرعتها ومداها الأقصى ، هكذا خيل إليّ .

"بهذه السرعة ؟"

لم يحو جوابها رفضاً أو استنكاراً ، إنما تساؤلاً هادئاً ، ناضجاً ، مدركاً لما يمكن أن تصير إليه الأمور ، قلت باسماً :

"القطار لا ينتظر .."

قالت إنها تعرفني إلى حد ما من خلال ما قرأته لي ، ولكن الصلة بالإنسان شيء آخر .

صحيح أن وجودنا في حيز متحرك حاض ودافع ، لكن عند بلوغ تلك النقطة تمهلت ، كنت راغباً في أن أحيط بقبس من أحوالها وأخبارها ، صحيح أنها في جملتها وصلت عندي ، ليس لظرف انفرادنا ولكن عندها

شيء خفي لا يبين أحدث داخلي مويجات وأصداء

سعيت إليها بهدوء ، قالت إنها دائمة الأسفار ، تعمل بالترجمة طوال العام ، تدخر مالاً وتقصد بلداً بعينه : هذه الرحلة بالقطار إلى الصين ترتب لها منذ عام مضى ، قرأت عن المحطات ، عن المدن التي سيتوقف بها القطار ، وعن آسيا الوسطى : بدءاً من عشق آباد سيتبعون طريق الحرير القديم .

كنت أتطلع إليها بهدوء ، أسبل باتجاهها مشدداً ، كنت أرقب توالي الضوء على ملامحها والظلال المارقة : كان الأمر مختلفاً عن خلوتي الثانية بإيزيس السويسرية ، عندما جاءت إلى لوزان وأقامت في الفندق نفسه ، بل في نفس الطابق ، عندما رجعت في العاشرة ليلاً قال موظف الاستقبال إن السيدة إيزيس تنتظرك .

كانت في الغرفة الضيقة ترتدي قميصاً قصيراً شفافاً ، وكانت تمسك بكتاب عن معبد أبيدوس ، راحت تتحدث عن احتفالات القوم بأوزيريس ، ما يشبه المولد الكبير ، تفارق نظراتها صفحات الكتاب لتتحدث عن وحشية علماء المصريات الذين يتعاملون مع الآثار القديمة كما يتعامل أطباء التشريح مع الجثث ، كان جسدها متاحاً لي ، تميل فيبدو نهداها المشرعين ، عبرت بهما الخمسين وطراوتهما وتماسكهما مكتملين ، في الليلة الأولى لرؤيتي لها ولقائي بها كدت أحفو توقاً غير أنها تمنعت ، وها هي قادمة من أجلي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بصحبتي ، لكن أدركني هذا الحال الذي عرفته مرات ، فبمجرد بلوغي الأسباب يحل همودي ، ويكتمل تبلدي فلا أشرع إلا في الانزواء وطلب الانفراد ، هذا ما انتهى إليه أمري هناك ،

حاولت أن تستبقيني ، أطالت تقبيلي ، لكنني أبديت السأم والإرهاق ، في اليوم التالي تناولت إفطارها بصحبتي ، قالت فجأة إنها تفهم ، وإنها مغادرة الآن .

لا أعرف أخبارها ولا أي شيء عنها ، طوتها تلك اللحظات الموارق ، المتناثرة التي تلوح أحياناً ، وتغيب معظم الطريق إلى أن تتلاشى تماماً ، الأمر مختلف الآن ، توقي متصاعد تجاه هذه الشاعرة البولندية ، قرب الغروب ألممت بالكثير عنها ، واستعدت معها ما تعرفه من ألفاظ عربية بقيت في ذاكرتها من أيام إقامتها في مصر .

اكتمل أول غروب حوالي السابعة ، هكذا تشير الساعة حول معصمي ، إنه توقيت القاهرة أيضاً الذي أحتفظ به دائماً وأضيف إليه أو أنقص منه عند بلوغي مواضع نائية ، توقيت موسكو لا يختلف ، تقع المدينتان على خط طولي واحد تقريباً ، لكن ماذا عن تغير التوقيت مع الاتجاه شرقاً بسرعة تتجاوز المائة كيلو متر في الساعة بعشرين أو ثلاثين ، مع انطواء المسافة بتغير الزمن ، عندما حان وقت النوم صعدت إلى العلوي ، إذ أنها فضلت التحتي ، أطفأت الأضواء الخافتة ، وكان القطار يمر بقرى صغيرة ومدن نائية لا ينبعث منها ما يكفي من الضوء لتبديد العتمة ولو للحظة ، قلت مداعباً :

"إنني أراك ..."

أجابتني بإيقاع طفولي :

"وأنا لا أراك .."

رغم ضجيج العجلات والقضبان وتغير الإيقاع مع أصداء الطريق وعبور الجسور الحديدية أو الحجرية ، وتلك الفواصل التي لا تبدل عبر كالة القطارات ، إنها الفراغات الخامية ، الحافظة . لا بد من إيقاعات تريح الامتداد ، فلو اتصل لما صار الطريق وما أدى إلى شيء .

كان الفراغ عبقاً بهيا ، حضورها رهيف ، هفهاف ، مضيء وباعث على السلوى وانتفاء الكدورات ، إنها المرة الأولى التي أغمض فيها عيني داخل قطار ، أطول مسافة قطعتها إلى أسوان ، ست عشرة ساعة أمضيتها جالساً إلى المقعد ، أغفو ، وأعبر الرؤى ، ويتداخل عليّ الحضور بالغياب ، لكن أن ارتدي جلباباً وأتمدد وأتوسد وأمد الغطاء الواقي فهذا ما لم أتصوره وما لم أعرفه من قبل ، بل إنني كنت أصغي بدهشة إلى عبارة "قطارات النوم" ولكن ما من خيار أمامي ، المسافة شاسعة ، والأيام عديدة ، يمكن للأرق أن يدركني في البداية ، لكنني مستسلم للوسن حتماً ، أخشى ما أرهبه أن يضطرب نومي في تلك الأسفار البعيدة فينال الوهن مني وتدركني المسغبة، لم أكن عرفت الطريق بعد إلى المستشفى ، وإلى غرفة الجراحة ، وما سأمر به وأصفه تفصيلاً في مواضع أخرى ، ولكنني كنت مطلعاً على ما عندي ، متنقل به من يوم إلى آخر ، ومن موضع إلى موضع ، أما العامل الثاني المقض لنومي فوجود تلك الأنثى على مقربة ، إنها دانية ، حاضرة مؤثرة ولو تعص عليّ أحد احتمال انفرادي هذا منذ عشرين عاماً أو أكثر لتولهت لمجرد الخاطر ، واتقدت للوصف ، ولكنني هادئ والليل ما زال في بدايته ، ولم تدم يقظتي ، بل إنني عبرت ذلك الحاجز الخفي ما بين اليقظة والنوم ، الأمر ميسور ، ربما ساعدت هدهدة العربات ، الإيقاع المنتظم والمتسق مع

الليل ، قسماته أوضح ، ربما لشمولية الصمت ومثول النجوم في الأفق ، وانطواء المدن على ذواتها وخلاءاتها لحظة مروق القطارات السريعة التي لا تلقي إليها بالاً ، فلا تتوقف ولا تتعامل معها ، لا تأخذ ركاباً ولا تمنح ، يصبح الصوت المنبعث من احتكاك الحديد بالحديد شرطاً للتكيف ، إطاراً للحواس ، الإيغال في النوم أسهل ، لكن عندما توقف القطار استيقظت ، بقيت متمدداً ، متطلعاً إلى السقف القريب مني ، المنحني نحوي ، تطلعت إلى الساعة التي لا تفارق معصمي .

الرابعة وعشر دقائق

تبدأ الآن شعائر صلاة الفجر في مسجد مولانا الحسين ، تسري في الميدان القصي معالم تدبير الناس لأمورهم قبل وفادة نهار جديد ، لكن .. أي توقيت الآن في هذا الموضع الذي بلغته وأجهله ؟

ما اسم المحطة

ما المكان ؟

ما الزمان ؟

تصلني أصوات خافتة ، المقصورة عازل جيد للصوت ، غمرة من السكينة : أصداء الأحاديث في الخارج تعمق الصمت ولا تبدده ، أحرص ألا أتقلب حتى لا أزعجها ، لم أتردد على دورة المياه لإفراغ مثانتي تماماً قبل نومي حتى لا أفتح الباب وأغلقه ، ضغطت أمري ، تجاوزته وهذا نادر، لم يكن ممكناً اطلاعي على التوقيت هنا إلا بسؤال أحد الركاب وهذا صعب لأنني لا أعرف الرومية ، هي الآن نائمة ، لو أنني لمحت ساعة المحطة ،

ستائر النافذة مسدلة .

صرير العجلات ، التراجع اليسير الذي يلي تلك الفرامل تمهيداً للتقدم ، لمفارقة الرصيف ، لاستئناف الرحيل حتى الوقفة التالية ، في رقادي هذا تمر بي لحيظات من أسفاري ، أصحو ، أغفو ، تلك محطات متباعدة ، واحدة من خط قبلي ، الخرى قرب النيل ، أغادرها وحيداً ، رصيف منعزل ، بلد ما لا أذكره ، ليس في موطني ، بلغته ليلاً في أحد أسفاري ، لا اقدر على استعادة اسمه ، تداخلت علىّ الأماكن ، زعقات القطارات البعيدة ، العابرة خط الأفق الدائري ، دائماً تثير الحنين الممض ، ملامح متعاقبة ، بعضها طالعته في لحظة ما مقترنة بمكان ما ، مشاهد لا أستوثق منها ، ربما صادرة عني ، أرصفة مستلقية ، إيقاعات خطى فوقها ، مشي وائق ، ركض متعجل، بلوغ الأبواب مثير لتسارع الأنفاس ومظهر للراحة والظفر ، في معظم الأحيان يعقب الدخول تلفت وتحديق في أولئك المجهولين له .

يتداخل تقدم القطارات بسير قطارات أخرى ، كل منها صنو لضوء معين ، هذا أخضر غالب عليه زرقة خفيفة للنخيل وأشجار الجنوب كافة ، وهذا أخضر سندسي مضيء ، قطيفي ، محيط بالسرعة السهمية التي اندفعت بها تجاه مدينة اكسفورد الإنجليزية ، محطات تشي بعلاقة ما بمباني وجسور الصعيد ، ملابس العمال والمفتشين ، تدمج حللهم الزرقاء بقرميد المباني الحمراء ، يتقاطع مع لون أصفر مفضل عندي ، مريح لي ، إنه الأصفر الذي ناله مس من أحمر ، غمرني عند سعيي عبر الأراضي الشمالية، المنخفضة ، وتملق حركة فتاة مكتملة الصعود ، مثنية التكوين ، شاهقة الملامح ، طازجة الحضور ، تمسك كتاباً ، تتحرك من مقعد إلى آخر

في بحر من ضوء أصفر يفيض بعصارة الحياة مع أنه لا يذكر إلا مقترناً بالتعب ، بالوهن ، بالموت ، لكن المعنى والمقصود درجة معينة منه ، ذلك أن لمعة الذهب درجة من الصفرة ، كذلك صهباوية الخمر ، غير أن أروع امتزاج بين الأبيض الحليبي ، الفاتر والأخضر الزيتوني على جدران العربة الوثيرة كان مؤدياً إلى أرق ما وقعت عيني عليه من ملمس إنساني ، بشرة ناطقة ، شقرة نبراوية وزغب قمحي كاسي ، كان ذلك عندما قصدت قرطبة ، وهذا فصلته في دفتر تدويني الأول ، فليراجعه من يرغب ، أما الياقوتي المفضل عندي فغمرني وقته خلال انتقالي بصحبة رفيق عزيز وصاحب حميم ما بين بوردو ومونبلييه الفرنسية ، ركبنا قبل انتصاف النهار، شمس حانية ، وحقول ممتدة ، وأشجار كاسية ، وقلاع منتظمة ، رصت أحجارها البيضاء بانتظام . العربة مصقولة المظهر ، رغم عتاقتها إلا أنها باهية ، تجمع ما بين سرعة مرغوبة ورصانة تؤآدة ، وعند تناولنا الغداء شربنا الياقوتي المصهور المدثر فسرى دفء إلى أوصاله ، وامتزج الشراب بلون العربات المؤثر ، المدثر ، فاكتمل الأمر .

خروجي من الفندق القديم المواجه لكنيسة تشهق أبراجها في الفراغ ، مشرفة على ما عداها ، قصدنا المحطة سيراً على الأقدام ، أنا وصاحبي الألماني الأصل ، ولما تسارعت دقات قلبي وركضت حتى تزايد لهاثي ، أصر على حمل حقيبتي فتنازلت عنها وعندي حياء ، حتى إذا لحقنا بالقطار المنتظر ، ابتهجت بألوانه البرتقالية وتنوعاتها المرحة ، وعندما امتزجت خضرة الأشجار الكثيفة المتراجعة أيقنت بثبات ذلك عندي، غير أن ما لا يُمحى قط ثمة لونين، هما أساس وأصل، وما عداهما فرع مشتق.

الأبيض

الأسود

الأبيض لفراغات العربات المتجهة إلى قبلي ، أما الأسود فللقاطرات محملية المطلع ، عهيبة الدخلة والخرجة ، وكلاهما لا غنى له عن الآخر ، فلا يكون هذا إلا بذاك ، امتزاجهما مولد للرمادي . لانتفاء الحد ، وهذا قطار عرفته ولا أعي منه شيئاً ، ومثله عندي كثير ، لكن ما أعنيه ذلك الذي اتخذته أمي بصحبة أبي ، من مصر إلى طهطا وهي حامل بي ، قاصدة جهينة لترعاها جدتي عند مجيء المخاض : لم تكن في القاهرة إلا وحيدة ، مفردة ، بعيدة عن كل عون ، هذا لم أعرفه .

درجة الضوء موازية ، مماثلة لتلك الأصباح البعيدة ، تتوالد عنّي المرئيات ، عندما انتبهت إلى تغير الضوء تطلعت إلى النافذة ، فوجدت بها واقفة ، مولية ظهرها ، تلتصق بزجاج النافذة المزدوج ، كل المرئيات تمرق إلى الوراء ، قميص نومها الحريري الأصفر الممتزج بالبياض المحكم يكشف عن استدارتين متزلقتين ، ناعمتين لكتفين نقيضان بثاً وإشارة ، قصير إلى درجة تسمح بظهور ربلتين مرتويتين ، مؤديتين إلى ردفين عريضين ، وسط بين الامتلاء والنحافة ، رحت أستوعب تضاريسها على مهل ، راضياً بهدوئي المستكين ، واثقاً من حلول تلك اللحظة ، غير مستجيب إلى نداءات داخلية حاضة ، محرضة بسبب سرعة انقضاء الوقت وتدفقه عبر تقدم القطار الطويل المتجه إلى الشرق .

على أي حال لم يتأخر الأمر طويلاً ، إذ حدث في الساعة الواحدة بعد

منتصف نهار اليوم التالي الذي غضبه معاً أن امتزجت أطرافنا في قبلة المفتتح ، وبذلت قصارى جهدي في احتوائها بشفتي ، لم تعانقني ، إنما تعلقت بي ولذت بها ، غير أنها تراجعت قليلاً ويدي تستكشف نهديها المؤلرين ، الصلبين ، النافرين شرعاً ورسماً ، قالت :

"تريدني ؟"

أطبقت عليها بفمي ، تعانق لساننا ، ثم عادت لتراجع وتقول :

"أريد أن أقول لك شيئاً .."

أنتبه إلى لهجتها ، صوتها طيب ، حنون ، متأن ، لا بد أنها تخفي أمراً ، تتطلع إليّ ، تهمس :

"أنا عذراء .."

يرتفع صوتها قليلاً ، أنتبه إلى تغير صوت العجلات ودرجة الضوء ، يبدو أننا نعبر نفقاً أو ممراً ..

"ومصرة أن أظل عذراء .."

تواجهني تماماً

"حتى النهاية"

كنت راغباً في استكشاف أغوارها ، واجتياز دروبها ، قالت إنها في الثامنة والثلاثين ، وأنها عرفت الرجال في الثامنة عشر

"سن متأخر لفتاة أوروبية .."

"نعم .. كنا في رحلة : وتعرفت عليه ، كان يكبرني بسبعة أعوام ، إنجليزي .."

لسبب ما لم توضحه بقيت عذراء واستمرت علاقتهما ، ثم تعرفت إلى أستاذ جامعي من جنوب أفريقيا ، هام بها وطلب الزواج منها ، لكنها اعتذرت ، اقتنع بحجتها أنها تريد أن تلف العالم وأن ترى أكبر مساحة منه، لم تتجاوز علاقتهما القبل والأحضان ولحس جسدها بلسانه ، لكنه لم يقترب من بواباتها المؤثرة ، تمنى ذلك لكنها أبت .

"هذا تحاليز ..؟"

قالت ضاحكة :

"يمكنك اعتباره كذلك .."

أقبلت عليها راغباً ، عندي حض من داخل يتعلق بنزوعي وطاقتي الحافظة ، المتولدة ، ودافع من خارج يتجسد في بساميها ، وإقبالها وإتقانها الملاطفة ، قبلت كافة ما طلبته منها ، وعندما انفرجت واحتوتنها وتأهبت لاحتوائي كدت أوقن بلوغي منها ما لم يصل إليه أولئك الذين عرفوها قبلي ، فكرت في غرابة الظرف الجامع ، والانفراد في الحيز غير الثابت ، تلك الحركة المستمرة ، عناقنا واتحادنا فوق عجل يطوي مسافات من أراضٍ لا أعرفها ، لم أبلغها ولن أصل إليها ، أمر بها ولا أتوقف عندها ، تتردد في ذاكرتي أسماء تشي بدلالات تستعصي على التفسير ، لها خلفيات وتواريخ وأزمنة وشخصيات ظهرت وغابت وموسيقى ونصائح وحكايات متوارثة وخبز له خصوصية وأبسطة من صوف مصبوغ وفراغات تلوح

خالية وما هي كذلك . القفقاس . بحر قزوين ، قمرة قوم ، مرو ، كوش،جيحون ، سيحون ، سمرقند ، بخارى ، فنديل ، البامير ، طشقند ، فرغانه ، شان ، نيان ، قره جهير ، تورفان ، بيشى باليق ، خوتاه ، يرقند ، خيو ، عشق آباد ، كرمان ، أصفهان ، شيراز .

لم أعد في عناقها ملتزماً بالأماكن التي تعلن عنها اللافتات ، كذلك حاد القطار المندفع عن القضبان الممتدة ، المرسومة ، المؤطرة ، المحددة بأعمدة الهاتف المتشابهة ، الشيء الوحيد الذي لم أخظ تغيراً يلفت النظر بين ما وقع عليه بصري أول مرة على جانبي خط الصعيد ، وما رأيته محاذياً للقطارات السريعة الطاوية للمسافات بالطاقة المتولدة من مصادر شتى ، حركة العربات الرتيبة ، المستقرة ، المنبئة بالتمام ، الاهتزازات الصغيرة ، التغير السريع الناتج عن المرور فوق جسر أو عبر نفق أو قرب مبنى ضخم ، ثم استئناف الإيقاعات المؤدية ، دورات العجلات المفارقة باستمرار ، حتى وتوقفها استثنائي ، فوق هذه الدورات التي لا يمكن للعين رصدها ، التي لم يحصها أحد ، كان عناقنا متصلاً ، وكنت أحاول النفاذ ، غير أنني لم أقدر إلا على طرق بواباتها ، كل ما يؤدي إليها موصد ، كل ما يصدر عنها مكتمل . آهاتها ، شداتها وضماتها وآهاتها المدغدغة للحواس الكامنة ، غير أن هذا كله بدون توالج ، أو اتحاد ، تلاهم أتم ، لكن بغير اندماج ، كأننا نؤدي مشهداً في مسرحية أو تمثيلية ، يوحي للناس بالتواصل ولا وصال ، في لحظات أكاد أمسك بها ، أدركها ، أوقن أنها تنتمي إليّ تماماً لكنها سرعان ما تفلت ، أتبين ما يفصلنا ، عيناها مغمضتان ، نشوتها مكتملة ، رغبتي متأججة ، لا أبلغ المدى ، ولا أقدر على الاستكانة ، وكلما

أصغيت إلى صوت العجلات ازداد وعيي بالمفارقة ، بطيء الأرض ، بقراءة ما يمر بي ، وإذ أوشك على الهمود ، تدور أصابعها الجوّاسة : القادرة على النفاذ عبر مسام رأسي وصدري وترائبي ، أنتفض مرفرفاً ، أدفع بحضوري الجسدي تجاهها ، بسنواتي المولية ، العجلات ، القضبان ، الصفير العابر للمدن الصغيرة .

العياط ، البدرشين ، الواسطى ، اللاهون ، بني سويف ، ميدوم ، مغاغة، بني مزار ، مطاي ، سمالوط ، المنيا ، أتليدم ، أبو قرقاص ، ملوى ، ديروط ، القوصية ، منفلوط ، إنطاكية ، أزمير ، الأناضول ، اللاذقية ، أبو تيج ، طهطا ، المراغة ، جزيرة شندويل ، سوهاج : دراو ، الأقصر ، أسوان ، بودابست ، حلب ، قابس ، مراكش ، فاس ، أسوان ، قرطبة ، غرناطة أشبيليه ، دمشق ، موريليا ، أبو قير ، الدمازين ، الخرطوم ، قُصير ، أسوان ، الشلال الأول ، الثاني ، الثالث ، الرابع ، كليفلاند ، ديترويت ، نيويورك ، أوتاوا ، أدنبره ، بالرمو ، فوه ، دسوق ، مطوبس ، رشيد ، دمياط ، بورسعيد، الفلور ، السويس ، سينجيانغ .

لافتات ، لغات مختلفة ، أماكن توقفت وأقمت بها ، لا أذكر أسماءها فينتفي وجودها ، من لا اسم له ، لا وجود ولا معنى ، أعبرها ، لا أقدر على التوقف ، أو الاستكانة ، العناق مستحكم والضم لايدع فرصة للإفلات ، وإذ أتمنى الابتعاد ولو للتأمل من مسافة لا أزداد إلا اقتراباً مع أنها تأبى ولا ترضى .

تمرق القاطرات على الخط المضاد ، المجاور ، فلا تحدث إلا الهزة الأولى ولا تخلف إلا الصمت ، موجودة وغير موجودة ، يدخل صخب اليوم

الثاني ، رائحتها ذكية ، هشاشتها تأسرني ، لا أقدر على بلوغها مع أني أحيط بها وتأبى الانفصال عني .

يتغير الضوء ، تمرق الأماكن ، تتوالد عليّ قطارات من الضوء ، في تعددية قوس قزح ، لكنها مفرودة ، متبسطة ، غير منحنية مثله في طواعيته لتحدب الكون .

من ضوء إلى ضوء ، من درجة لون إلى أخرى ، أتدرج ، أترقرق ، أتململ وأنثني ، أنضجر ، أعاود المحاولة غير يائس من بلوغها وهي واقفة ، مستلمة ، ذراعاها حولي لكنها لا تزداد إلا بعداً لصيباً يدركني وهن ، يحتويني ضوء ، درجته فستقية ، لكن لا أثر لتدرجات الأحمر أو الأصفر .

بالتأكيد أزرق ، لكن أي درجة .

فيروزي ؟

ممكن .

سماوي ؟

بالتأكيد .

زرقة بحر في مواضع عميقة ؟

كأنها المواجهة الأولى مع البحر خلال رحلتي إلى أبي قير ، زرقة أبدية كانت حالقة بي ، تضمني وأضمها ، صارت كلها إليّ ، ورحلت إليها كاملاً ، مكملاً .

بالقطع . لكن بداخله ضوء غامق ، قاتم ، مستعص على التصنيف ،

ينبع من أفق هادئ ، راسخ ، ساكن ، ممتد ، طويل الاستكانة ، قاطرة متدفقة من لازوردية ملساء ، مزججة اللمس ، خالية من أي مسام ، لا ظل ، لا تعوجات ، لا فوق ، لا تحت ، لا قبل ، لا بعد ، كافة ما أعرفه ، ما بلغته ، وما تمنيته ، ما تقت إليه متضمن ، محوي ، لكن التفصيل عسر ، وكافة محاولاتي للشروع ، للنزوع هدأت ، صرت مترقرقاً عندي نشوة لا توصيف لها ، مكترثة بذلك اللون ، أمتثل ، أترقب ، أتطلع ، قابلاً لكل وضع ، ملتقياً كل وقع ، قاصداً كل وجهة ، غير مستفسر عن محطة تالية أو سابقة ، يتساوى ما تسفر عنه الحركة ، وما يؤدي إليه الثبات ، أترقرق متشبعاً بحضورها المتلمع بهذا اللون ، وعندما أدركته مرة أخرى ، في موضع مغاير ، زعقت داخلي ، منادياً ما بث إليّ ، مستبهراً بهذه الزرقة الفريدة : المعلقة ، المتدفقة ، المستمرة

"في الأمر شيء .."

"في الأمر شيء .."

جمال الغيطاني

القاهرة ١٩٩٧

الفهرس